أحزان إلكترونية

حنان الوادعي

obeikandl.com

الكتاب : أحزان إليكترونية (رواية)
المؤلف : حنان الوادعي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ١٠٨١٦/ ٢٠١٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 156 -7

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikandl.com

شمس
للنشر والإعلام

رواية

آحزان إلكترونية

حنان الوادعي

obeikandl.com

obeikandl.com

إلي حبر قلمي الأول..

والدي..

إلى من فاتني حياته كما فاتني موته..

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

في صوته شيءٌ قريب.. ليس دفئًا.. ليس بردًا.. لكن شيء يأتي من خلف ذاكرة الزمن لصوتٍ ظلَّ يسكن الخيال ويخشى الاقتراب.. يخترق جدار الزمن المصنوع من عناد قديم والساكن في داخلي الغاضب دومًا..

جميل أن أمارس الابتسامة بين الحين والحين، والأجمل أن أمارس الحلم.. لقد غادرني مبكرًا بلا وعدٍ بالرجوع..!

لكن لِمَ الصباح دائم القسوة على أحلامي الليلية، لِمَ كلما أطلَّ الفجرُ سحب ابتسامةً كادت تطفو على سطح وجهي ..كادت تكسر روتين العبوس وتحطم تقاليد يومي القاتم؟

رغم أني كنتُ طفلة؛ لكني اعتذرتُ لك يا الله كثيرًا على غلطات سواي، وظلَّ جسدي يرتجف؛ يستعطف الدفء، حتى أحطته بثوبك الدافئ وأهديتني سريرًا إلهيًا أنام عليه كل ليلة لا أحتضن فيه سوى حنانك.. وجعلتَ عليَّ ملائكةً تحرسني من الخوف وتغني لي بعضًا من أغاني السماء.. تؤكد وجودك معي كل يوم قبل حلول المساء.. تمامًا عند ذلك الغروب الذي ترسمه بفنٍّ عجيب.. يجدِّد دهشتي على عظمتك كل يوم..

لكن لماذا سمحت لي اليوم أن أفيق على صوتٍ جديد؟ أما توسلتك الهدوء؟! أما توسلتك البُعد عن الحلم الذي قُتل في مهد الطفلة؟.. لماذا أطلقته من سجن الكلمة، لِمَ منحته صوتًا؟ ولماذا أنا أبحث عن مزيد من الألم؟ أنا وكلي يعلم الحقيقة.. يعاني منها كلما طاف على جسدي الحزين، ويهرب منها بمزيد من الثياب؟؟ لا فائدة، فأنا عارية تمامًا وأرى الحقيقة.. والثياب ليست إلا القصة الكاذبة في حياتنا!!

لقد اعتدتك يا الله أنت وأصوات ملائكتك وما عادت أذني تحتمل ترانيم البشر وغناءهم الكاذب!!

أنت أضأتَ لي شموعًا على طول المسافات التي أقطعها وأنا أقترب منك..شمعك السماوي هذا كشف لي عن حُفرٍ كانت تنتظر ابتلاعي في جوفها المظلم.. وأنا لا أريد السقوط مجددًا، فقد كان الظلام هناك مخيفًا وبالكاد آمنت بوجود الضوء مرة أخرى!!

سأجدك اليوم قبل حلول المساء في موعدنا اليومي.. هناك سنجد طريقة ما.. وسنعيد الكلمة إلى سجنها ونردم الحفرة الآتية في الطريق.

obeikandi.com

(٢)

وفي ذلك الموعد اليومي ذهبتُ.. والتقيتُ الله في عين الكون المحيط بي، وبلا حديث فهم صمتي وخوفي..وأضاء لي الطريق كعادته؛ فرأيتُ ذلك الرجل التكنولوجي يقف بعيدًا!!

لكن ما هذا المكتوب على جبينه (كاذب...!!)..

ابتسمتُ... الله يحبني، وما زلت مخلوقته المدللة..

سقطتْ دمعة شكر من عيني.. كيف أشكر الله؟

نعم أنا تلميذة غبية في مدرسة الحياة التي تعج بالكاذبين والمخادعين. نعم أنا مغرورة لأني في كل مرة أدَّعي الفهم وأسقط تلك السقطة الفاشلة في إقناع غروري بالتريث!!

متى أصدق أن الكذب هو الحقيقة الثانية بعد الموت؟! متى أصدق أن هناك من يجد لذة وهو يراقبك تموت ببطء من سم الكذب الذي دسَّه لك في طعام الكلام؟!

أسألك بألم: لِمَ كذبت عليَّ؟!

تبتسم بسخرية في وجهي الأحمق قائلاً بتبجح: وأنتِ يا حمقاء لِمَ صدَّقت؟!

الحمد لله أنك وُلدت في قلب شاشة إلكترونية.. وأن كذبتك تلوَّنت بلون إلكتروني، فجاء الألم الذي أحسسته غريب المذاق.. وحتى اللحظة لا أعرف كيف أتعامل معه؟!

ليت ذاكرتي لم تمنحك صوتًا، وليتك ظللت في سجن الكلمة الإلكترونية.. لأن الألم المقروء أهون (كما قلتُ له ذات مرة) لذا أنا متأكدة بأني سأتجاوز كذبتك هذه بأقل خسارة ممكنة!!

فقط زدتني إيمانًا أن الرجال كلهم سواء.. وأن المختلف الذي أبحث عنه لا يوجد إلا في ذاكرتي السخيفة وحلمي الأسخف، وأن عليَّ قتل هذه الأوهام التي أزرعها في لحظات التفاؤل!

سيدي..

الكذب في عرف الله جريمة مهما صغر حجمه..

ماذا لو كنتُ تابعت السقوط في سمائك معتمدة على ذراعك التي ستلتقطني وصدرك الذي أوحيت لي بفراغه.. وكأنما ينتظر احتضاني؛ رغم أنه غير شاغر!!

ماذا لو كنتُ؟!

قد لا يكون الصدق هو الأساس الذي بُنيت عليه التكنولوجيا؛ أو حتى الحياة بأكملها، لكن في مرحلة ما من العلاقات ونقاط معينة من

الحوار تتحول الأمور من مجرد تسلية على شاشة إلكترونية إلى أمور إنسانية بحتة وتبدأ روح التكنولوجيا الباردة تنحسر بعيدًا تاركة مساحة كافية للدفء والصدق، وكان لا بد لك أن تستغل لحظة الصدق والدفء بدلاً من إيذاء مشاعري وبدلاً من أن نخسر ذلك الاسم الذي أطلقه الله علينا.. إنسان..

obeikandl.com

(٣)

أبتسم وأنا أراك بين الأسماء تبحث عني.. أبتسم أكثر وأنا أتلقى أول رسالة منك.. عفوًا لا تَلُمني لقد أطلقت ضحكة وأنا أقرأ سؤالك المغلَّف بأمل ويأس في الوقت ذاته وكأنما ترجوني أن أجيب بنعم: (هل أعرفكِ؟)

لم يكن في الكُنية التي اخترتها ما يدل على هويتي ، لذا ضحكتُ من أعماقي وأنا أتخيلك تبعث بذات السؤال لكل من دلَّ اسمها في القائمة على أنها فتاة.. لقد رأيتك مرتين قبل الآن وراقبتك تبحث عني أو حتى عن أي فتاة تشبهني، لكنك اليوم وجدتني؛ أو لنقل أنا من أعطاك فرصة إيجادي.. تمامًا كما في المرات السابقة، فقد كان في مقدوري ألاّ أجيب البتة أو أن أعطيك صفات مزورة، لكن من قال إني أقدر على احتراف الكذب ولو لمرة في حياتي..

تعجبتُ على هذه الكيمياء التي تُطابِقك مع أشخاص هم في حكم الواقع أشباح لا وجود لهم، وتعجبتُ من نفسي وأنا أعتصرك بقلب بارد وكأني كنت أثأر منك حتى قبل أن أعرف كذبك، ورغم الوجع كنتَ تتلذذ اعتصاري لك وكان هذا يستفزني أكثر فأنت لم تكن لتبالي أن تعيش في حالة ألم دائم لو كان هذا هو ثمن بقائي!!

من أعطاني القدرة على تعذيب الرجال حتى من وراء حاجز إلكتروني؟

المرارة شعرتها في حروفك عندما سألتني: (لماذا عدتِ إلى نفس الموقع؟). لم أكذب عليك ساعتها في إجابتي عندما قلت: (لم أكن أعلم بأني سأجتاز الألم بهذه السرعة) ...

ألم أقل لك إنني لم أكن قد مرَّرتً بأحزان إلكترونية من قبل، لذا تعاملت مع هذا الألم بشيء من الجهل بمعطياته واكتشفت ألاّ مقارنة بين الألم الواقعي في حياتنا وبين الألم الذي يُخْلَق في قلب تلك الشاشات الباردة...!

باردة..!! هل هي حقًا باردة؟

وإن كانت كذلك، فمن أعطاك وأعطاني تلك الدقائق الدافئة التي أشعر بحروفك فيها وكأنها تجسدت روحًا يحيطني من كل جانب، وتلك اللحظات الكثيرة التي حدث أن لمستك فيها ولمستني بقوة وإحساس هما أجمل بكثير من ذلك الإحساس المادي الذي يوفره لك الواقع عندما تختلي ليلاً بجسد حقيقي!!

إني ما زلت أذكر تلك المرة عندما حاولت استفزازك بأني الليلة أفكر في مقابلة شخص كان قد عرض عليَّ أن أتعرف عليه، يا إلهي

كم ضحكتُ يومها، لقد أقفلتَ في الحال بعد أن قلتَ لي بحروف تحترق غيظًا وتشتاط غضبًا: (حظًا موفقًا)..

كم هي هذه الشاشة قادرة على نقلك لي حرفيًا في ضحكك وألمك وغيرتك.. نعم في ذلك اليوم مارستُ معك بعضًا من حيل النساء وفجَّرتك حبًا وغيرة وغيظًا.. لو تعلم كم تمنيت لو أني كنت أرى كل هذا أمامي.. لا أدري ماذا كنتُ فاعلة؟ هل سأضحك من قلبي حتى أرتمي أرضًا؟! أم أقرر ساعتها أن أضمَّك بقوة لتهدأ؟!

تعلم..

لو كنتُ ممن يهوى تعذيب ذاته والآخر، لعلمتك درسًا في ممارسة ذروة الألم.. ولتركتك تتلوى أمامي وجعًا.. نعم كنت أقدر ونحن في بداية قرنٍ لا يعترف إلا بالتاريخ التكنولوجي أن أحيلك ونفسي أولى قصص حب القرن، ولجعلتنا مضرب مثل عشاق العصر القادم.. فحتى الآن ما زالت صفحة عشق القرن الجديد خالية تنتظر أن تُملأ بأسطورة جديدة، لكني لم أكن لأملأها أنا... بِكَ أنتْ..!

لأني عندما تعلمتُ ممارسة الحب الجبري؛ تعلمتُ معه كيف أمارس الألم وطوَّرت قدرتي على الانتقام من الآخر وتحويله إلى رماد.. تعلمت مجاهل الحذق النسائي.. أنا ذلك الطائر البريء الذي وأدت

براءته مبكرًا على فراش لا يصلح إعداده إلا لمن أدركوا أبعادًا أخرى للجسد وفهموا الرغبات التي تتستر في الظلام!!

ما أقسى أن تتعلم القسوة لتواجهها!! وما أقسى أن تصبح حقيقتك الجميلة النقية هي آخر ممارساتك مع نفسك ومع الآخرين!

أعلم أني اخترقتك كالرصاصة واستقررتُ في مكان ما بجسدك لأعبث بك بنازية عجيبة.. دائمًا أُدهش نفسي بقدرتي على تعذيب الآخرين بلا خيارٍ ثانٍ أمامي.. لكني لم أعلم بأن احترافي وصل ذروته عبر شاشات من المفترض أنها العالم الكاذب الذي لا يحتمل أكثر من منطق الثورة المعلوماتية!!

لكن ها أنا أستغل هذا المنطق بطريقة مختلفة وبشعة تمامًا كما قلتَ لي وأنت تصف إجابتي الصادقة جزئيًا فيما يخصك؛ والكاذبة كليًا فيما يخصني: (إجابة بشعة.. كالعادة)...!!

لقد استوقفتني كلمة (كالعادة) كثيرًا..!! كيف فهمت عاداتي التي لإدراكها نحتاج أن نعيش معًا تحت سقف واحد.. نحن الذين عجزنا حتى أن نختلي ببعضنا في غرفة إلكترونية!!

عبثًا تحاول التخلص مني.. ورغم أن التكنولوجيا لا عروق لها ولا دماء؛ إلا أني نجحت في اختراقك حد الألم.. وربما البكاء..

مثلي يجيء في العمر مرة.. أنا صاحبة كل التناقضات.. تلك التي بكلمة تزرع في عينك دمعة وحلقك شوكة وبأخرى تزرع ابتسامة، أنا تلك التي تحبها حدَّ الجنون، وتكرهها في اللحظة نفسها حدَّ الجنون ذاته.. أنا تلك المرأة التي يشتهيها كل الرجال جسدًا؛ وتُبهرهم عقلاً، أنا تلك التي تقدم لها بيد وردة وبالأخرى صفعة تحاول بها استرداد قصة هيبة الرجل التي تبعثرت عند قدميها.. أنا تلك التي يُقبِّل قدميها الرجل في المساء؛ ويتمنى ركل غرورها في الصباح.. أنا تلك التي أصل بك حافة الجنون؛ وعندما أرى دموعك أسكبها في قلبي وأضمك حتى الصباح لأصل بك حافة الهدوء..

أنا المرأة التي في جسدها ذلك الشيء الذي يفقدك السيطرة على جسدك وفي عينيها تلك النظرة التي تعيد إلى جسدك توازنه وتدربه معنى الاكتفاء وأن النظرة وحدها قادرة على أن تصل بك ذلك الحد المجنون في ممارسة الحب دون الحاجة إلى أجساد تؤديه...

أعلم أني تلك المرأة التي تطابقتَ معها حتى النخاع.. تلك المرأة التي كان عليك أن تنتظرها ولو كلفك انتظارها عمرًا كاملاً.. أكاد أشعر بمرارتك الآن وغروري الذي احترفتُ ممارسته ليحميني من أخطاء كثيرة.. غرور تحصَّنتُ به ضدك وضد مَن هم على شاكلتك.. قلبتُ الطاولة حتى لا يتسنى لأحد العبث بي..

من مثلك لا يرحمني، لذا أنا ومن مثلي خلقنا درسًا لأمثالك.. نعلمك العشق بجنون؛ والحقد بجنون؛ والرغبة بجنون؛ ونقذفك بلا رحمة قبل التورط الذي ترسمه أنت لنا بلا رحمة!

ضغطتُ على زرِّ الإرسال وبعثتها.. ونمتُ مباشرة!

صحوتُ باكرًا كعادتي.. نظرتُ نحو الشاشة التي امتهنتُ فصل أجسادنا! ترى هل كتبتَ لي بعد تلك الرسائل النارية التي بعثتها لك البارحة؟!! لا لن أفتح شيئًا الآن.. لا أريد أن أحرق دمي قبل الذهاب إلى العمل.. اللعنة لماذا ضعفت البارحة وبعثت لك؟! ألم أكن أريد أن أنهيك أصلاً؟! غبية أنا كعادتي! كنت أعلم أني أستفزك لا أكثر، وأني كاذبة في ملحوظتي الأخيرة التي ذيلت بها رسائلي الثلاث؛ أو خواطري الثلاث..!!

"لا أريد ردًا على هذه الرسائل لأنها ليست أكثر من ثلاث خواطر كتبتها في أيام متلاحقة وأحببت فقط أن تقرأها".

كم أبدو حمقاء!!

سحبتُ جسدي ببطء وكسل.. ليتني لا أذهب اليوم إلى العمل! هل أتصفح بريدي الآن؟ لا ليس الآن، انتظري حتى الظهر.. هكذا أفضل حتى أتعلم الصبر وأعلِّم لهفتي أن تبطئ قليلاً حتى تعتاد التوقف النهائي..!

بعد صبح طويل؛ ممل.. جاء الظهر.. جاء بعد تحايل خرافي على رغبتي العنيفة في قراءة تعليقك على رسائلي أو خواطري.. وقبل أن أفتح أي شيء جاء شخص يبحث عن المدير الذي خرج قبل ساعة.. أوف.. كان لا بد أن أجلس إليه وأناقشه حول الموضوع الذي جاء من أجله.. حاولتُ الاختصار؛ حاولتُ تسريع النقاش.. هيهات!! منذ متى جلس إليَّ رجل ليختصر الحوار أو ينهي اللقاء!!
وأخيرًا ذهب..

فتحت البريد.. لا توجد رسالة..
أي خيبة أمل هذه؟!
زفرت بضيق وتساءلت إن كان يتصفح بريده ليلاً؟ لكن الوقت لم يكن متأخرًا عندما بعثتها.. كانت الساعة حينها تشير إلى العاشرة والنصف مساءً.. ربما تصفحها هذا الصباح؟! بالتأكيد، لكن يبدو أنه قرر إهمالها.. أو إهمالي!

شعرتُ بحاجتي إلى قهوة وخاطرة ما تداعب أفكاري. كلاَّ سأتوقف عن كتابة الخواطر هذه الفترة حتى أجتازك تمامًا.. عيبٌ أن أستغل قلمي وأحيله إلى مبرر للتواصل معك؟!

"ماذا أريد منك؟! أنا التي نمت ملء جفوني في ليلة ظننت أني سأدرك صباحها وعيناي مفتوحتان؟! ماذا أريد من شبح إلكتروني ظلَّ

لسنة كاملة يمارس عليَّ كذبة حقيرة وكاد يوقع بي بلا رحمة! لِمَ لا أكتفي بهذا القدر من الوجع؟! لكن هل كان وجعًا أم وهمًا اعتدته!

لقد افترقنا مرتين على الأقل (فراقًا إلكترونيا بالطبع) وفي كل مرة كان يومي يمضي عاديًا لا نقص فيه ولا عيب؛ إذا ما استثنيت تلك اللحظات التي كنت أشتمك فيها لأنك بطريقة ما أفسدت عليّ متعة الدردشة مع آخرين لم أكن لأجد معهم ذات المتعة والنكهة الخاصة التي يتمتع بها حواري معك والتي تنشأ مع أول كلمة تبعثها.. مذاقك يشبه إلى حد بعيد مذاق القهوة العريقة التي أرشفها ببطء حتى لا أنتهي منها إلا مشبعة تمامًا، ورغم هذا لا أذكر مرة أننا أنهينا حوارًا ونحن مشبعان تمامًا، كان هناك دومًا ثمة شيء لم يُقَلْ بعد".

ها أنا أكتب مجددًا.. رميتُ القلم بعيدًا، أخذتُ الورقة ثم مزقتها بعصبية.. لن أبعث له مزيدًا من الخواطر ولن أسمح له أن يكون خاطرتي الوحيدة.. الكاذب لا يستحق منا عناء الاهتمام.. لكن لماذا تكذبين على نفسك؟ ألم يكن هذا هو الكاذب الإلكتروني الثاني الذي فرَّرتِ إليه عنوة وبإصرار طفلة حمقاء لتنسي الكاذب الإلكتروني الأول؟!

الكاذب الأول.. رامي.. (الرجل المجروح).. كما كانت كُنيته الإلكترونية.. رامي ترى أين أنت الآن؟! وهل أستطيع أن أُسمِّي ما

فعلته معي كذبًا؟ أليس في هذا كثير من الظلم في حقك ؟ وهل يجوز لي أن أظلمك لأبرِّر لهذا الأخير كذبته اللا مبررة!! هل كان في يدك أن تفعل شيئًا غير ما فعلت؟!..

تنهدتُ وأنا أتذكر ذلك اليوم عندما كنت متوعكة بعض الشيء، كنت مريضة، بل كنت قد انتهيت لتوي من إجراء عملية، ولم يمر يومان أو ثلاثة حتى ساءت حالتي كثيرًا وحدثت لي مضاعفات جانبية كادت تنهي حياتي وكان ذلك محتمل الحدوث لو أني كنت ساعتها على أرض الوطن! لكن ما كادت أختي تطبق سماعة الهاتف حتى كان الـ (٩١١)[1] يطرق باب الشقة في الطابق الثالث والعشرين ويأخذني خائرة القوى أتأرجح بحيرة بين الحياة والموت ويعود بي في ذات الليلة وكأني لم أكن على وشك أن أموت قبل قليل!!

في تلك الليلة نمتُ عميقًا، لكني مع هذا استيقظتُ الساعة الثالثة صباحًا.. كنت لا أزال أشعر بإرهاق وتعب، ومع هذا لم أستطع العودة إلى النوم.. لم يكن أمامي من خيار سوى أن أدردش قليلاً على الإنترنت مع بعض الأشخاص.. كانت بعض الأحاديث مملة، وبعضها ممتعًا، حتى بدأ الحديثَ معي شخص سمَّى نفسه (رجل مجروح).. كان حديثًا بدأ غريبًا وانتهي أكثر غرابة، لكنه كان ممتعًا لدرجة أبقتني حتى الثامنة صباحًا!!

---

(١) رقم الطوارئ في أمريكا.

كتب: (رجل مجروح) > هل هذا هو أسمك الحقيقي أم مجرد رمز؟

Is this ur real name or just ur[٢] SN[٣]?

(يارا) > حقيقي جدا..☺ it is so real

(رجل مجروح) > lol [٤]

(رجل مجروح) > أنتِ تعرفين ما أقصد! فلِمَ المراوغة؟

كنتُ أعرف أن بعض الأشخاص يستغربون أني استخدم اسمًا بدلاً عن كنية – كما هو المعتاد في عالم الدردشة الإلكترونية – وكان هذا يعجبني لأني دائمًا أتلقى نفس السؤال، وعادةً ما يكون مادة أولية للحوار معهم حول لماذا نكذب ولماذا نخفي أنفسنا وراء أسماء وهمية! وهذا الحوار يكشف لي في الغالب عن كثير من شخصية الذين أدردش معهم..

(رجل مجروح) > أين أنتِ إذن؟

(يارا) > خلفك تمامًا ☺

(رجل مجروح) > تصدقين أخفتني وبطريقة لا إرادية أدرت رأسي إلى الخلف.. ☺

---

(٢) اختصار كلمة your

(٣) اختصار كلمة Screen Name رمز إلكتروني للشخص عبر شبكة الإنترنت.

(٤) اختصار للتعبير الشائع، laugh out loud وتعني الضحك عاليًا وتكرار حرف الـ (o) يعني أن المتحاور يضحك بشدة.

obeikandl.com

(يارا) > lool ☺

(رجل مجروح) > قصدت أن أقول أين تعيشين؟

(يارا) > قريبة منك!

سكت.. كنت أبتسم وأنا أشعر بأن كلماتي أربكتْه بطريقة ما وتوقعَّت سؤاله:

(رجل مجروح) > هل تعرفينني يا آنسة؟

(يارا) > looooooool

(رجل مجروح) > كُفِّي عن الضحك وأجيبيني بصراحة.. هل تعرفين من أنا؟

(يارا) > يهمك معرفة الحقيقة؟

(رجل مجروح) > نعم..

فكَّرتُ قليلاً.. وفجأة خطرت على بالي فكرة غاية في الغرابة..كتبت له:

(يارا) > أنا أيضًا أشعر بأني أعرفك.. أتحدث معك بودٍّ وسلاسة غريبة.. أتعلم بأن هذا هو يومي الرابع الذي أدردش فيه.. لم أكن قبلها أحب فكرة الدردشة، لكن ولأني مجبرة ألاّ أغادر البيت بسبب عملية أجريتها قبل أيام، فكَّرتُ أن أقتل هذا الملل، فأختي تذهب إلى عملها وأنا أبقى وحيدة في المنْزل، لقد خطرت ببالي الآن فكرة لنتأكد

obeikandl.com

إن كنا فعلاً نعرف بعضنا أم هو مجرد شعور أصابنا بسبب هذا الود الذي نشعر به يسيطر على حديثنا..

(رجل مجروح) > عملية؟!

لم يُلقِ بالاً لعبارتي الأخيرة وشعرت بكلمته الأخيرة قلقة بلا افتعال..

كتبت: (يارا) > أنا بخير الآن..

(رجل مجروح) > عملية ماذا؟!

(يارا) > لا أريد الحديث عن هذا الموضوع من فضلك.. أنا الآن بخير وكفى!

تأخر قليلاً قبل أن يبعث لي وكأنه كان يفكر في عبارتي الأخيرة..

(رجل مجروح) > إذا كانت عملية عادية فلماذا أنتِ ممنوعة من الخروج إذن؟

(يارا) > إرهاق عادي وفترة نقاهة لا بد لي أن أقضيها في البيت وبعد أقل من نصف شهر سأعود لمزاولة حياتي العادية..

(رجل مجروح) > ما هي فكرتك إذن؟

(يارا) > هل تشارك الأمريكيين عيدهم السخيف الهالويين Halloween[٥]

---

(٥) يوم يحتفل به الأمريكيون في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر كل عام ويعني عيد القديسين وهناك اعتقاد سائد بأن الأرواح تخرج في هذا اليوم.

obeikandl.com

(رجل مجروح) > lol ☺ أحيانًا، يعتمد على مزاجي ونوع رفقتي في ذلك اليوم، لكن لماذا تسمينه سخيفًا؟

(يارا) > لا أرى له معنىً.. نحن لا نؤمن بخرافات الأرواح..

(رجل مجروح) > بل إن كثيرًا من المسلمين يؤمنون بالشعوذة والدجل والأرواح الأخرى..

(يارا) > أعرف هذا جيدًا، والغريب أن بعض مثقفينا يؤمنون بهذه الخرافات أيضًا، لكن الحمد الله أنا لست منهم ولا أؤمن بقوة سوى الله..

(رجل مجروح) > أنا أيضًا لا أؤمن بقوة سوى قوة الله عز وجل، لكن ماذا عن عيد الهالويين؟

(يارا) > ما رأيك أن نتأكد إن كنا نعرف بعضنا فعلاً أم هو مجرد شعور لا أكثر!

(رجل مجروح) >كيف؟ أستعين بالأرواح ☺!

(يارا) > ☺ لا، بل نرتدي أنا وأنت ثيابًا عادية ولكن مميزة بلون ما، وبعدها تبحث عني وأبحث عنك في تلك الزحمة المجنونة، وساعة تجدني أو أجدك نكتشف حينها إذا ما كنا فعلاً نعرف بعضنا البعض أم لا؟!

(رجل مجروح) اقتراح غريب ومع غرابته أجد فيه الكثير من الطرافة والجنون المحبب، لكن لا تقولي لي إن عليَّ أن أبحث عنك في M st [٦].

---

(٦) شارع مشهور في منطقة "جورج تاون" في العاصمة واشنطن.

obeikandl.com

(يارا) > **looooooool** بلى يا عزيزي ..

(رجل مجروح) > أنتِ إذن كمن يريدني أن أبحث عن إبرة في كومة قش...

(يارا) > لا تحكم بفشل الفكرة.. .دعنا نُجرب..

(رجل مجروح) > يبدو أني على موعد للقاء غريب..!!

كان رامي هو أجمل ما يحدث لي في تلك الأيام الطويلة المملة والمساءات الباردة.. لكني كنت دائمًا عاشقة الشتاء..

ابتسمتُ وأنا أتذكر فرحته عندما قلت له إني أفضِّل الشتاء على الصيف..

– أنا أيضًا أحبه.. يا له من تطابق عجيب هذا الذي نكتشفه يومًا بعد آخر.. في البرد أشعر بدفء عاطفي غريب وأكاد أتدفق حبًا حتى في تلك الشتاءات التي مرَّت بلا حب..

كنا نقترب ببطء من نهاية أكتوبر.. وكأن الأيام كانت تمارس علينا طقوسًا تعذيبية أو تمنحنا درسًا مجانيًا في تعلم الصبر الذي بدأنا نفقده بالتدريج متعجبين من هذه الكيمياء التي طابقت روحينا بشكل يثير الدهشة!!

قال لي عندما لم يبقَ غير ثلاثةِ أيام على ليلة عيد القديسين: ماذا لو كنتِ رجلاً يمارس عليَّ لهوًا سخيفًا؟!

ضحكتُ لحظتها من أعماقي..

– وماذا لو كنتُ قبيحة الشكل؟

– loooooooool ☺ قد أتوقف ساعتها عند هذا الحد من التطور العاطفي نحوك..

– ☹ سخيف..

– وماذا لو كنتُ أنا بشعًا، أو لنقل لست ذلك الشاب الذي كنت تتوقعين..

– لكنك قلتَ لي إن عينيك خضراوان برغم أنك من بلاد لا تورث هذه الألوان عادة..

– loool بغض النظر من أين ورثت هذا اللون لكن العيون الخضراء بكل الأحوال ليست كافية لتدلل على الوسامة..

– سأتوقف إذن عند هذا الحد من التطور العاطفي نحوك ☺

– هل أفهم من هذا أن ثمة تطورًا عاطفيًا تجاهي..

– سخيف...

كان يحاول إغاظتي وشعرت به لحظتها يضحك من أعماقه..

(٤)

وحلَّت ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر..

ارتديتُ قبعة صوفية سوداء تحيط برأسي تمامًا وتركت شعري متناثرًا على كتفي، ولبستُ معطفًا أسود طويلاً وتركته مفتوحًا ليُظهر كنْزة صوفية وبنطالاً أسود قصيرًا أظهر جزءًا من ساقيَّ اللتين أخفيتهما بحذاء شتوي طويل أسود..

بدوتُ فعلا كقطة سوداء؛ كما وصفني رامي عندما شرحت له ما أنوي ارتداءه؛ ثم أضاف: عليك إذن أن تبحثي عن القط الأسود.. سأرتدي أنا الآخر كنْزة صوفية سوداء وسروالاً أسود، بل إني سأشتري ذات القبعة السوداء التي اشتريتها البارحة، ألم تقولي بأنها تصلح للجنسين؟..

– بلى.. هي كذلك..

اتفقت مع صديقتي "مها" أن تمر عليَّ الساعة التاسعة تمامًا لنتوجه بعد ذلك إلى (إم ستريت)، وكنت قد اتفقت مع رامي على أن أتحدث معه على الإنترنت قبل خروجي بعشر دقائق..

كتبت: هل أنت مستعد؟!

– قلق بعض الشيء..

obeikandl.com

– لماذا يا رامي؟! لا تقل لي إنك ما زلت تظن أني قد أكون أحد أصدقائك!!

– أنتِ لا تعرفين ما نتعرض له من المقالب يوميًا بسبب هذه التكنولوجيا اللعينة!!

– على كلٍّ اليوم ستظهر الحقيقة..

– نعم.. يارا هل لي أن أطلب منكِ طلبًا؟

– بالتأكيد..

– لنفترض أن الساعة تجاوزت الثانية عشرة ونصف بعد منتصف الليل وما زلتُ غير قادر على إيجادك وأنتِ كذلك فهل من الممكن ساعتها أن تتصلي بي الساعة الواحدة تمامًا على الأقل لأسمع صوتك وأتأكد أن من أتحدث معها هي فتاة.. أريد طرد هذه الأوهام من رأسي..

ترددتُ قبل أن أجيبه.. كنت أعلم بأني أنا الأخرى لن أطيق صبرًا بعد الليلة..

كتبتُ:

– لا أدري..

– أرجوكِ..

– إذن سأطلبك من هاتف عمومي وليس من هاتفي النقال..

obeikandl.com

– تستطيعين حظر الرقم إن شئتِ!

– معك حق .. سأرى!!

وأعطاني رقم هاتفه..

جاءت مها في الموعد..

لا أدري إن كانت لهفتي للقاء هذا (الرامي) هي ما جعلتني أشعر بأنها كانت تقود ببطء.. لقد كانت طوال الوقت تتحدث عن سخافة أفكارنا وتشتم العرب جميعًا وتتهمنا بأننا نعجز عن التصرف والإحساس بتلقائية، وأن ما أفعله اليوم هو منتهى التعقيد للتعبير عن شيء بسيط هو اهتمامي وإحساسي بشخص ما، وبأني لست إلاّ تعبيرًا مصغرًا عن عجز هذه الأمة عن التعبير عن حقوقها ومشاعرها بتلقائية وبدون لفٍّ ودوران!!

قد تكون على حق..

بل هي على حق!

مها عاشت بداية عمرها في باريس، لتنتقل وهي في العاشرة إلى العاصمة الأمريكية، كانت مزيجًا غريبًا وشيقًا لفتاة تكره كل الطباع العربية، لكنك تراها في أول الصفوف المحتشدة أمام البيت الأبيض، تلف شعرها بشال فلسطيني، تلعن (إسرائيل)، تندد بوجودها على أراضينا العربية وتهتف بسقوط الصهاينة.. لكني عندما تعرفت على

والديها فهمت كيف استطاعت مها أن تجمع بين الحداثة والحفاظ على الهوية الحقيقية للدم العربي.. لقد فهمت بأن ما ينقص هذه الأمة المتخاذلة هو أب وأم من هذا النوع، هذا النوع الذي يخلق بداخلك ذلك التوازن الصعب بين التعاطي مع الجديد والحفاظ على القديم.. هذا النوع الذي خلق من مها فتاة شرسة متأهبة للدفاع عن القضية التي تؤمن بها ولو كلفها هذا الدفاع حياتها..

كنت أحبها عندما تتحدث.. فكلامها موزع بطريقة مضحكة بين لغات ثلاث تتحدثها بذات الطلاقة.. كانت صديقة رائعة، فهي لا تنساني أبدًا رغم المسافات التي بيننا، وكلما سافرتُ إلى العاصمة الأمريكية أجدها أول من ينتظر قدومي..

وصلنا... أدركت هذا وأنا أسمع مها تشتم كعادتها: اللعنة على هذا اليوم.. كيف لنا أن نجد مركنًا في يوم كهذا؟!

وبعد عشرين دقيقة من البحث وجدنا مكانًا بعيدًا بعض الشيء ولكن كان هذا أفضل من قضاء اليوم في حالة بحث عن مكان نَصُف فيه السيارة..

ترجلنا أخيرًا عن السيارة ومشينا حتى (إم ستريت) وغصنا في زحمة غير معقولة..

كان صعبًا أن أتخلص من تعليقات مها الساخرة والتي كانت تغرقني ضحكًا حتى أتوقف عن المشي أحيانًا..!!

كانت تقف بين الجموع المحتشدة وتصيح بأعلى صوتها: رامي أيها القط الأسود.. نحن هنا..

بل إنها لم تتوانَ عن إيقاف أشخاص يرتدون الأسود وتسألهم (هل أنت رامي؟.. أرجوك قل نعم) وكان الجميع يضحك منها ويتبادل معها التعليقات.. حاولت ثنيها أكثر من مرة فالعرب هنا في كل مكان ويحتفلون بالعيد أكثر من أصحابه.. لكن هيهات..!

– هل تريدينني أن أتوقف عن المرح والضحك من أجلهم.. هل جننت؟!

كان معها حق.. ولا أدري لماذا كنت أشعر أن عليَّ أن أقوم بدور الناصحة معها.. فأنا في أحيان كثيرة أكثر جنونًا وتمردًا؛ بل إنها السمة الغالبة على شخصيتي؛ والدليل على هذا ذلك الكم من الناس الذين كان عليّ أن أخسرهم واحدًا تلو الآخر في مواقف عديدة بسبب مبادئ متمردة ونمط في الحياة لم يعجب أحدًا..

وقفنا في زاوية ضيقة ليمر من جانبنا جيش من الصبيان يرتدون زي مصاص الدماء..

قالت: يارا، لِمَ كل هذا اللف والدوران؟! كان من الطبيعي أن تلتقيا فورًا بدلاً من هذه الأفلام البوليسية السخيفة!!

ضحكت ملء شدقيها.. وأضافت: لكن أتدرين يبدو لي أنكما ستنسجمان لأن من يوافقك على هذا الهراء والجنون لا بد له أن يكون من نفس طينة أفكارك الغريبة.. إن ما تفعلانه اليوم هو أكثر التقليعات غرابة منذ بدأ الناس الاحتفال بهذا العيد.

كان من الصعب أن تتوقف عن الثرثرة معي ومع المارة وحتى مع نفسها..تارة تعلق على زي هذا وتارة تصيح في وجه تلك.. تمنيت من كل قلبي أن تسكت قليلاً.. شعرت بأنها لو سكتت قليلاً لوجدته.

شعرت بالبرد وبحاجتي لشرب قهوتي المفضلة Café latte[٧] وكنا قريبتين من أحد محلات المقاهي المشهورة والمنتشرة في كل مكان.. دخلت أنا لأطلب القهوة بينما هي تثرثر خارج المحل مع فتاة هندية كانت ترتدي زيًا هنديًا جميلاً..

طلبتُ لها قهوة أيضًا، لكني نسيت أنها لا تحب القرفة التي أحبها أنا ولا أطيق شرب قهوتي دونها فأضفته لها مع القهوة.. و....

---

(٧) قهوة أصولها إيطالية.

كأني لمحت أحدهم من خلف الزجاج يرتدي نفس قبعتي ويلبس أسود.. كدت أجري وراءه.. رأسه اختفى بين هذه الزحمة.. ماذا عليَّ أن أفعل؟ لا شيء.. تنهدت بضيق.. لقد أفسدت على نفسي متعة هذه الليلة بسبب اقتراحي الغبي.. إن مها محقة في كل كلمة قالتها!!

فجأة قررت أن أنسى الموضوع.. وكأنما كان مزاجي ينتظر هذا القرار أكثر مني فقد تبدل كليًا ووجدت نفسي أضحك من أعماقي وأنا أسمع مها تسبني وتسب القرفة التي وضعتها لها في القهوة!

– يبدو أن هذا الرامي أصاب عقلك بالجنون.. أنت تعرفين أني لا أحب هذه القرفة الـــ...

كانت ألفاظها بذيئة، لكن هل تستقيم الكلمة الأمريكية بدون شتم بين كل حرف وآخر.. لا أظن!!

حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف شعر كلانا بالجوع، وكنا نعلم أنه من الصعب إيجاد مطعم قريب لا يزال مفتوحًا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل..

هذا الشعب لا يرى حاجة لأن يغير مواعيده حتى في الأعياد إلاّ إذا صادف وقوع هذا اليوم في عطلة نهاية الأسبوع حيث تظل المحلات مفتوحة حتى الفجر..

أخيرًا وجدنا مطعمًا مكسيكيًا، كنا لحسن الحظ آخر من وافقوا على إدخالهم.. أكلت أصنافًا حارة لا أحبها كثيرًا ولا تناسب معدتي الحساسة لكني لم أجد خيارًا ثانيًا إلا البقاء جائعة حتى أعود إلى البيت!!

اتصلت بي أختي أكثر من مرة للاطمئنان علينا.. هي تعتقد بأن هذه الليالي هي أكثر الليالي التي تقع فيها الجرائم.. فالجميع يختفي تحت الأقنعة، والكحوليات تُشرب حتى تلغي العقول..!

كانت الساعة تقترب من الواحدة، وكان عليَّ أن أتخذ قراري بمهاتفته..

قالت مها: لا حاجة للانتظار، أكثر اتصلي به الآن فأنتما أخيرًا ستتحدثان وتلتقيان، فَلِمَ لعبة القط والفأر هذه؟!
أجبتها وأنا أزفر بضيق: سأفعل..ولكن عند الواحدة تمامًا..
لوت شفتيها بتأفف وواصلنا مسيرة الطواف..

كانت الزحمة قد خفت كثيرًا وأصبح من الممكن تمييز الأشخاص فرادى ورغم هذا لم أجده..!

وعند الساعة الواحدة توقفت عند هاتف عمومي.. كان قلبي ينبض بسرعة وأحسست بتوتر غير منطقي.. فأنا أتصرف الآن بحماقة فتاة مراهقة، لكن كان صعبًا أن أؤدي أفضل من ذلك!

قالت مها وهي تنظر إليَّ متعجبة: يا إلهي هل يكون الاتصال قضية كبيرة تحتاج إلى كل هذا القلق والتردد؟

– أرجوكِ يا مها أنا متوترة ولا أرغب في سماع أي شيء الآن!

قالت بعصبية وهي تراني ألتقط سماعة الهاتف العمومي: ولِمَ لا تتصلين به من هاتفك النقال؟!

– هكذا اتفقنا..

– ما هذا الغباء؟؟

نظرت إليها بحدة قائلة:

– هل تنوين السكوت الآن حتى أستطيع أن أتحدث؟!

رمقتني بنظرة لا مبالية ومن ثم جلست على الأرض وهي تلعب بميداليتها وتدندن أغنية..

لا أذكر أني شعرت بتوتر كهذا في حياتي..!

أخرجت الورقة من جيب معطفي وضغطت على الأرقام بهدوء وبأصابع مرتعشة..

سمعت صوته على الطرف الآخر..

– يارا..

بلعت ريقي بصعوبة.. وتلعثمت بطريقة يرثى لها..

– رامي.. اها.. أهلاً

obeikandl.com

طال الصمت أو هكذا أحسست.. قطعه رامي قائلاً:

– يارا هذا هو أنتِ.. أخيرًا..

كان صوته هادئًا، واضحًا.. فيه بحة محببة..

– نعم.. هذه أنا!

تنهد بصوت مسموع.. شعرت بابتسامته. التكنولوجيا تعلمنا كيف نحترف الإحساس بالآخر حتى لا يفقد التواصل متعته فنجد أنفسنا مع الوقت نميز فرح الطرف غير المرئي من حزنه، من هدوئه، من ابتسامته..!

– قولي شيئًا..

– لا أدري ماذا عليَّ أن أقول.. أنت قل شيئًا..

– لكني كنت أريد أن أقول أشياء وأنت أمامي..

– هذا أفضل من لا شيء..

– وماذا لو حصلت على كل شيء..

– لم أفهم!

– أديري رأسك للخلف.

عبارته الأخيرة لم تَحْتَجْ إلى كثير من الذكاء لأفهم بأنه كان يتجه صوبي في تلك اللحظة!!

شعرت بأن قدمي ضعيفتان، ورغم محاولاتي البائسة في أن أتماسك أمامه إلا أن الموقف حدث في اللحظة التي لم أتوقعها.. مغص ما شعرت به في معدتي.. ترى هل بدأ مفعول الطعام المكسيكي، أم أن ما يحدث في هذه اللحظة هو فوق طاقة احتمالي؟!!

كان يتجه نحوي بهدوء.. "مها" أيضًا فهمت ما كان يحدث، وثبت من مكانها قائلة: أخيرًا..

ثم همست في أذني: تريدين الحقيقة.. كان يستحق عناء البحث.. سأنتظرك في السيارة..

كان لقاءً غريبًا.. رائعًا.. مدهشًا.. مترددًا.. متمردًا.. وخائفًا!!

وقف ينظر إليَّ ثم مدَّ يده.. احتوى كفي الصغير بكلتا يديه.. قال مازحًا وكأنما يريد تخفيف وطأة الموقف على كلينا: لماذا لم ترتدي قفازات سوداء.. يدكِ باردة!

كان صعبًا أن أطيل النظر إلى عينيه، لقد كان ينظر إليَّ بحنان غريب وكأنما التقى حبيبة قديمة وابتسامة طفيفة لا تفارق طرف فمه.. حاولتُ سحب يدي بهدوء، لكنه ضغط عليها وهو يهز رأسه سلبًا: لا..

أظن أن وجهي احمرَّ قليلاً.. تململت في وقفتي..

قال وأنا أشعر بعينيه تطوفانني بهدوء: انظري إليَّ..أحتاج إلى عينيك في هذه اللحظة وانسي كفك تمامًا لأني لا أنوي تحريره سريعًا..

لون عينيه الأخضر تناغم بطريقة مثيرة مع بشرته العربية السمراء وتلك الطلة الصحراوية المليئة بالثقة والغرور.. ورغم هذا فشكله العام لمن لم يخبر وجوه الجزيرة العربية يوحي بشخص لاتيني..

هذا الصحراوي لم يَرَ في متابعة الموضة ما يعيب رجولته أو يتعارض معها والذي يعتقد به البعض.. بل يبدو أنه استغلها بطريقة أكَّدت هذه الرجولة بشكل لا جدال فيه!!

كان يرتدي ذات القبعة الصوفية التي أرتديها والتي لم تُخْفِ سوى رأس خالٍ من الشعر تقريبًا.. حلاقته كانت أشبه بحلاقة جندي في الجيش أو رجل وصل لتوه من رحلة فضائية والتي يبدو أنها راقت لجميع الشباب من مختلف الأعمار والفئات، وكانت لحيته خفيفة جدًا وكأنما نسي أن يحلقها قبل خروجه؛ لكن هذه أيضًا كانت من إحدى صرعات الحلاقة الجديدة التي يتبعها شباب اليوم والتي في مجملها توحي بشخص متمرد!!

ترى كم هي هذه الصفة قريبة من شخص رامي؟ أم أن الموضوع لا يَعدو أكثر من شكل خارجي لشاب يحب متابعة الموضة!!

كنْزته الصوفية كانت تلتصق بصدره المفتول.. لقد أخبرني ذات

مرة ونحن نتحدث على الإنترنت بأنه يذهب للنادي يوميًا لممارسة رياضة كمال الأجسام، ولقد عبَّرت له حينها عن قرفي ونفوري عندما أرى أولئك الرجال ذوي العضلات البارزة والجلد اللامع والذين للأسف يظنون خطأ بأن الفتاة تنجذب لهكذا نوع من الأجسام والتي باتت توحي بوحش آدمي لا أكثر، لكنه حينها أكَّد لي أنه يفهم هذا جيدًا وأنه لا ينوي أن يصل إلى ذلك المستوى فهدفه الأول والأخير أن يحافظ على جسد قوي وعضلات تساعده على اجتياز المواقف التي قد يقف فيها الجسد الهزيل عاجزًا.. وأضاف بخبث يومها: عندما أراكِ في ليلة الهالويين ستغيرين رأيك فأنا لا أبدو أكثر من رجل قوي يستطيع حملك وحمايتك عند الضرورة..

تأملته أكثر.. ترى كيف يجب أن تتعامل الفتاة مع رجولة كهذه.. لا شيء غير الحذر خاصة أن صاحبها يدرك مواهبه جيدًا..

قال بصوت هادئ: لم تقولي لي إنني كنت أتحدث مع فتاة جميلة.. فيكِ تلك الجاذبية التي تعرض صاحبتها للخطر!

استنشقتُ الهواء بعمق.. سحبت يدي بقوة هذه المرة.. قلت: لم تَبْدُ لي مجاملاً على الإنترنت..

تفحص يديه الفارغتين ثم نظر إليَّ قائلاً بمرح: هل ضايقتك؟ لم أقصد أن أطيل السلام.. كنت أشعر بالبرد وذلك كان يشعرني بالدفء.. لا أكثر..

عقد يديه على صدره وعيناه لا تفارقان ملامحي..

– هه..ما رأي، أتمنى ألاّ يكون جسدي مصنفًا تحت ذلك النوع المنفر والمقرف؟!

شعرت بالإحراج وأطرقت برأسي وأنا أتحايل على ابتسامة تغالبني:

– بل تبدو طبيعيًا.. ما زلت في المستوى المقبول والمرغوب.. و..

تسرعت.. خرقاء..

لمعت عيناه بنظرة خبيثة وضحك ضحكة من القلب عندما أدرك ارتباكي من الجملة التي قلتها..

– هل يعني هذا أني نلت الرضا مبدئيًا.. أو لنقل خارجيًا؟!

– مخطئ..

– كيف؟

– لأني تعرفت أول ما تعرفت إلى داخلك ولم أكن قد رأيتك بعد لكن هذا لم يمنع كيمياء العلاقات من اختراق الشاشة..

ضحك مرة أخرى.. ضحكته محببة وتدخل القلب..

– لِمَ دائمًا تهزمينني بالكلام؟

ابتسمتُ وأشحتُ بوجهي الناحية الأخرى: صاح بطريقة طفولية..

– يا إلهي.. كن معي!

obeikandl.com

– ماذا؟!

– كم تبدين رائعة.. لم أتصورك هكذا، لقد فقتِ كل توقعاتي.. ثم تعالي هنا.. لِمَ كل تلك الشراسة على الشاشة وكل هذا الخجل على الطبيعة؟!

حاولتُ تغيير الموضوع، فقلتُ وأنا أُخفي كفي في جيب معطفي: لماذا تضع تقويمًا على أسنانك؟

ابتسم ثم قال وهو يعقد حاجبيه بحزن مفتعل: هل أبدو سيئًا إلى هذه الدرجة؟!

صحت مقاطعة: أبدًا.. لم أقصد.. لقد سألتك لأني استغربت، فأسنانك تبدو لي طبيعية لا عيب فيها!!

قال بمرح طفولي: كان عليكِ إذن أن تمتعي ناظريك برؤية أسناني قبل سنتين من الآن..

لم أستطع منع نفسي من الضحك..

أضاف مازحًا بخبث: على كل لا تقلقي.. التقويم لا يؤذي الطرف الآخر..

احمَّر وجهي لتلميحه فقلت مقاطعة بسرعة: لماذا أعطيت نفسك ذلك الاسم الإلكتروني (رجل مجروح)؟

لم يتوقع سؤالي!

لكن هذا لا يبرر كل ذلك الارتباك والضيق الذي ظهر على وجهه فجأة!! تساءلت إن كان حدسي في محله.. لطالما شعرت بأنه لم يختر ذلك الاسم عبثًا!! وأن قصةً ما تنام وراء تلك الكُنية.. والأرجح أنها غير نائمة!!

اختفت تلك النظرة المرحة من عينيه.. قال بسرعة: مجرد كنية للتسلية ولفت الأنظار لا أكثر، ثم إنَّ هذه الكنية هي من بين أربع أو أكثر أستخدمها عند الدردشة!!

كاذب... وددت لو قلتها جهرًا..!!

ابتسمتُ لألطف الجو الذي وتَّره سؤالي.. وغيَّرت مجرى الحديث تمامًا وأنا أتمشى معه إلى حيث أوقفت مها سيارتها... وعندما وصلنا كان مكان السيارة شاغرًا ومها لا أثر لها!!

احتقن وجهي وشعرت بالسخط على هذه المجنونة.. نظرت نحو رامي قائلة: هذه المجنونة، كان عليَّ أن أتوقع شيئًا كهذا!!

فهم رامي ما يدور فأطلق ضحكة قوية..

– صديقتك رائعة..

لكني حينها شعرت بالضيق من تصرفها السخيف.. اتصلت بها على هاتفها النقال: أين أنتِ؟

– قرب منْزلنا.. كانت تضحك ثم أضافت: لا تكوني سخيفة كنت سأنفجر من الملل وأنا أنتظر في السيارة ففكرت أن أعطيكما فرصة لتتحدثا أكثر بينما هو يوصلك بسيارته.. هل شكرني على ما فعلت؟

أقفلت الخط حتى لا يضطر رامي أن يرى وجهي الآخر بهذه السرعة.

امتعض وجهه قليلاً.. قال بهدوء: يارا..أنت لا تظنين أني أنوي استغلال الموقف بطريقة غير لائقة..

قاطعته قبل أن يسترسل في فكرته الحمقاء: رامي.. أرجوك لا تكن سخيفًا.. تصرفها أغضبني لا غير.. وقلب مزاجي..

قاطعني هو هذه المرة وهو ينظر إليَّ كما لم ينظر إليَّ أحدٌ من قبل: يارا.. دعيني أكتفي من النظر إليك الليلة..

هل رشني أحدهم بماء بارد؟! كيف هدأت في لحظة؟!.. في عينيه قصيدة صمتت على وجهي.. لحنًا هادئًا.. دعوة للسلام.. كيف احتواني هذا الرجل عبر شاشة وكيف عيناه الآن تتجولان تقاطيعي الباردة وتهزمان قلقي المفتعل في مجمله.. هل يغوص فيَّ الآن أم أنا من يغوص فيه؟!

وطوق النجاة لِمَ تقذفين به بعيدًا يا يارا؟! هل حقًا اتخذت قرارك بالغرق؟

أدركت أن تلك اللحظة جاءت.. اللحظة التي تنبهك أنك بصدد أن تحيا بعد قليل..

هل كنت ميتة؟!

هل يمكن للأيام أن تكون أكثر سعادة، وهل يمكن للحياة أن تظل مشرقة حتى في الليل الأسود؟!

هل هو إلاّ داخلنا من يلون ساعات الأيام؟!

تظل الحياة تحترف البخل وتدخر الفرح وتقترف في حق الذاكرة أسماء ومواقف لا تحسب أكثر من درسٍ أولي لمادة رائعة المحتوى لكنها صعبة الاجتياز.. "الحب" هذه العاطفة النبيلة والتي غالبًا ما نشعرها مع الطرف الخطأ!!

obeikandl.com

(٥)

بعد يوم عيد القديسين تبدلت طريقة أيامي، كنتُ أقضي معظم وقتي أتحدث معه على الهاتف ما عدا تلك الأوقات التي يكون مشغولاً فيها داخل حجرات الدراسة، فقد كان يحضِّر دراساته العليا في مجال تكنولوجيا المعلومات، وكنت أكره تلك الأوقات الطويلة التي لا يحدثني فيها..

دهشت عندما عرفت أنه يحب سماع الأغاني العربية رغم أن هيئته لا توحي بذلك أبدًا، والأغرب أنه كان يتمتع بأذن حساسة تلتقط الكلمة واللحن الجميل..

قلت له وأنا أضحك: شكلك لا يوحي أبدًا بأنك تحب الاستماع إلى الأغاني العربية..

ضحك قائلاً: يا سلام.. وهل هناك شكل معين لمن يحب الاستماع إلى الأغاني العربية؟

– لا.. لكن كيف لي أن أتوقع هذا من شخص لا يخالط العرب ويجد صعوبة في التعبير عن نفسه بالعربية، إنك بالكاد تنطق كلمتين عندما تتحدث معي، (والله) و(تمام).. واسمي..

لوى شفتيه بسخرية قائلاً: كما تلاحظين أجد صعوبة في نطق حرف

الراء عندما أتحدث بالعربية، والغريب أن هذا العيب لا يظهر وأنا أتحدث بالإنجليزية.. أصدقائي يظنون أني أنطقه بتلك الطريقة متعمدًا.. منتهى السخافة..

ابتسم وهو ينظر إليَّ بدفء ثم تابع: لو كان أهلك اختاروا لك اسمًا آخر لأراحوني من عذاب نطقه..

قاطعته وأنا أضحك: بل الأغرب أن أهلك أيضًا اختاروا لك اسمًا يحتوي على ذات الحرف..

ثم أضفت: رامي.. هل تثق بكلامي وأني لن أجاملك أبدًا على حساب الحقيقة..

– أجل..

– إذن عليك أن تعلم أن هذا هو أجمل حرف تنطقه على الإطلاق وأنه ما كان من الممكن أن ينطق اسمي بجمال وعذوبة أكثر.. رامي الناس تتشابه في طريقة الكلام وأنت حباك الله بخصوصية غير عادية تجعل من طريقة كلامك شيئًا مميزًا وجذابًا ..

قاطعني وهو يضع إصبعه على شفتي: أدرك مؤهلاتي جيدًا.. لا داعي للمبالغة..

أزحت إصبعه برقة وقلت وأنا أشعر بخيبة أمل لأنه لم يصدقني:

– رامي..

– عيووووون رامي..

يا ربي .. نسيت ما أردت قوله...

قال فجأة بحماس طفولي: هل أخبركِ بشيء؟.. لكن بشرط ألا تسخري مني..

ابتسمتُ وأنا أعده ألا أفعل لكن كان واضحًا من تعابير وجهي أنه وعد لا أساس له من الصحة..

وبحركة طفولية طأطأ رأسه وهو يدَّعي الحنق..

– لن أقول لك شيئا..أنت تكذبين!!

ابتسمت من قلبي قائلة: قل لي وأنا سأشتري لك شوكولا..

هزَّ كتفيه قائلاً: تحايلي عليَّ أكثر..

– أرجوك..

نظر نحوي وعيناه تضحكان... لو يدري ما تفعل بي هذه العيون!!

– صوتي جميل حين أغني..

صحتُ..

– حقًا؟..

هزَّ رأسه إيجابًا..

– نعم.. خاصة عندما أغني بالعربية..

– وهل ستغني لي؟

هزَّ رأسه نافيًا.. فعمدتُ أنا هذه المرة إلى تلك الحركة الطفولية وأنا أعطيه ظهري قائلة: سأخاصمك..

لكنه اقترب مني بهدوء.. ثم بدأ يدندن هامسًا بمقطع من أغنية أحبها كثيرًا..

– "يا قلبي أنت الكبير صالحها يعني شيصير.. ما دام حلوة يا قلبي دلوعة لازم تصير.."[٨]

أدرت رأسي وعينايَ مفتوحتان دهشة.. صوته لم يكن جميلاً.. صوته كان رائعًا!!

قلت له: لماذا لم تفكر أن تصبح مطربًا..

أطلق ضحكة قوية...

– مستحيل لا أرى نفسي في عالم من هذا النوع، ثم إني أنحدر من عائلة محافظة ولها اسمها..

ضحك مرة أخرى وهو يتابع:

– أظن أهلي جميعهم سيصابون بالسكتة القلبية إن أنا فعلت هذا!!

فجأة تغيرت ملامح وجهه وضم يدي بين راحتيه وتابع وعيناه تتوهان في ملامحي:

---

(٨) أغنية للمطرب الكويتي نبيل شعيل.

obeikandi.com

– ثم يكفيني أن تكوني أنتِ كل جمهوري..

تنهد بعمق ثم تابع وهو يسترخي ويسند رأسه على حافة الأريكة ويدي ما زالت تنام باسترخاء بين راحتيه:

– أي حرية هذه التي أشعر بها معكِ؟، أي راحة هذه التي تلفني في حضرتك؟.. يارا أنتِ تحاولين قلب أيامي..معكِ أتبدل كليًا.. أتعلمين لم أغنِ لفتاة في حياتي وما كنت أجسر على هذا.. ماذا تفعلين بقلبي؟

تنهدتُ..

– وعيناك.. ماذا تفعلان بي؟!

– تغرقان فيك.. تتلمس هذه التفاصيل الناعمة..

انهمر الحب على قلبينا مطرًا.. يرفض التوقف.. ويحجب الرؤية..!!

لم أعلم أن العشق مؤلم حتى السعادة.. ومريح حتى الألم!

كنا نظل نتحدث على الهاتف حتى يغلب أحدنا النوم.. وكان يغني لي كلما طلبت منه، أو يقاطعني أحيانًا بمقطع من أغنية تناسب جو الكلام الذي نقوله.. كنت بالتأكيد أعيش فيلمًا خياليًا على أرض الواقع، وكلانا كان يستغل لحظات السعادة التي يبدو أن الحياة قد لقنتنا من الدروس ما يكفي لنستوعب أنها لن تدوم طويلاً..

عندما عرف أني أحب القهوة، أخذني إلى مكان رائع يقدمون فيه قهوتي المفضلة في فناجين كبيرة تشبه طبق الشوربة..

قال وهو يضحك عندما رأى الفنجان: حتى تكرهيها تماما...
أخبرني إنه يتردد دومًا على هذا المكان خاصة في أوقات الامتحانات حيث ترى كثيرًا من الجالسين يستذكرون دروسهم..

كان المكان يعطيك شعورًا بالحميمية والدفء فالجميع يجلس على أرائك كبيرة الحجم تغوص فيها، وتشعرك وكأنك تجلس في غرفة الجلوس في بيتك، كما أنك حرٌّ في اتخاذ الوضعية التي تريدها وأنت جالس، فالبعض يمدد رجليه، وآخرون يجلسون القرفصاء، والأفضل من هذا كله؛ أن العرب لا يترددون على هذا المكان مطلقًا، وكنا حريصين ألاّ نرتاد الأماكن التي يتواجد فيها العرب... تناقض غريب في طباعنا، فنحن أكثر الشعوب عاطفةً ودفئًا، ورغم هذا فعلينا أن نفر بمشاعر الدفء والعاطفة بعيدًا!! لماذا نحيط أحاسيسنا بكل هذا الكتمان والحيطة، ولِمَ العيب هو الإحساس الدائم الذي يرافق كل ما نفعل ونشعر؟! وهل لهذا السبب نفشل دائمًا؟!

تذكرت مها.. في كلامها كثير من الصواب..!!

هنا لا أحد يكترث لأحد.. صفة فيها الكثير من الاعتراف بحقك في أن تحيا كما تشاء، لكنها تمحق العلاقات وتؤدي إلى برودة في المشاعر قد تدفع أحدهم لتركك تموت في الشارع لأن موتك وحياتك لا تعني له شيئًا!!

كان رامي لا يشرب القهوة ولا الصودا ولا الكحول ولا يدخن السجائر حتى، وكان هذا يسعدني كثيرًا، ليس فقط لأنه حرام، فأنا لا أحترم شخصًا يشرب الكحول مهما كانت مؤهلاته حسنة، ولا أطيق من يدخن السجائر، ولا زلتُ أتذكر ذلك الشخص الذي تجمَّد إعجابي الشديد به عندما علمت بأنه يتعاطى الكحول، وعندما كنت أراه بعد ذلك؛ أشعر وكأني أرى شخصًا آخر تمامًا! أي متعة يراها الشخص في فقدان إحساسه بما حوله؟! وهل تكتمل السعادة والمتعة إلا بوعي كامل بما يحدث حولنا!!

كان رامي يكتفي بشرب شاي أخضر مصنوع من أعشاب طبيعية مفيدة وكنت أشترك معه في امتناعي عن شرب الصودا بكل أنواعها، وعندما سألني عن السبب..ترددت قبل أن أجيبه: أنا أقاطع كل المنتجات"الإسرائيلية" وكذلك المنتجات الأمريكية أو أي منتجات تساعد "إسرائيل"..

دُهش..

– حقًا..

– نعم منذ أكثر من سنة ونصف، وهذا ساعدني في أن أنقطع عن شرب الصودا بشكل عام حتى ولو كان من إنتاج شركات أخرى.. ليس أنا فقط بل كل أصدقائي..

نظرة إعجاب لمحتها في عينيه..

– ولماذا ترددتِ قبل أن تجيبي؟!!

– مرة اتهمني شخص ما إني أحاول استعراض قوميتي العربية لا أكثر.. ووجدت أن كثيرين يعتبرون هذا غير مُجدٍ، وأنا أستغرب تفكيرهم فأنا حرة في التعبير عن رفضي للاحتلال والتطبيع بكل أشكاله وقد لا أستطيع الامتناع عن شراء المنتجات الأمريكية كلها بسبب عدم وجود البدائل، رغم أن كثيرين من أصدقائي امتنعوا عن شرائها تمامًا، غير أني لا أجد في هذا تطرفًا ولا سخافة، بل أرى أنَّ كل واحد منا يفعل ما بوسعه، ومن جهة أخرى أرى أن هذا في حد ذاته قد يشجع بعض رؤوس الأموال العربية على إنتاج بدائل منافسة للمستهلكين، وهذا سيشجع العرب على الإنتاج والصناعة.. ربما.. فنحن شعوب لم تعد تفهم!!

كان يستمع إليَّ بهدوء وكأنه اكتشف جانبًا من شخصيتي لم يكن يتوقعه بكل الأحوال..

كانت أحاديثنا متنوعة، وكنا نطرق مئات المواضيع لنتعرف على بعضنا أكثر.. وكانت أحلى اللحظات هي تلك التي ينْزل فيها عند رغبتي بعد إلحاح شديد بأن يتحدث بالعربية.. كنت أحب لهجة بلاده وأريد أن أسمعه يتحدثها، لقد بذلت جهدًا غير عادي لأقنعه بأني أحب

تلك الراء التي تعصيه ليتحدث بحرية وبلا توتر..

كانت أحاديثنا تترصد الضحك.. تتعقب البهجة.. تلاحق المرح.. تبطئ قليلاً لتترك مجالاً لحديث صامت تمارسه عيوننا.. تتوقف على حافة العمق.. تسقط في قعره.. تتألم.. العمق مؤلم.. تعاود الصعود.. تبحث مجددًا عن لحظة مرحة لكنها قد تفشل أحيانًا..

كان منْزعجًا ذات ليلة، بل كان قلقًا ومسحة حزن ومرارة تجلت في صوته؛ رغم محاولاته اليائسة أن يخفي ما به..

قلت: ألم يحن الوقت بعد لتخبرني؟

كنت أعلم أني قد أرتكب حماقة بسؤال كهذا، لكن مرَّ من الوقت ما يكفي لأن يفتح صدره ويبوح بسر الحزن الذي يحترف إخفاءه وراء عينين ضاحكتين دومًا وتقاطيع مرحة..

قال وهو يعقد حاجبيه باستغراب..

– أخبركِ بماذا؟

– بما تخفيه عني..

هربت عيناه بعيدًا.. قال وهو يتظاهر بشرب العصير: ومن قال إني أخفي عنكِ شيئًا..

تنهدت.. قلت بهدوء مفتعل: لا تقل إنك لا تخفي عني شيئا.. بل

قل لم يحن الوقت بعد لأخبرك فهذا أفضل من الكذب..

تفحصني بعينيه.. ثم ابتسم نصف ابتسامة تحمل من المرارة الكثير: معكِ حق.. لم يحن الوقت بعد..

لم أتوقع هذه الإجابة لقد اعتقدت أنه سينكر، ولكنه اعترف ببساطة تناقض كل تحفظه السابق..

شعر بدهشتي، فضحك وتابع قائلاً: لا تشغلي بالك يا يارا.. كل شخص لديه شيء ما يخفيه.. مثلاً أنتِ؛ هل قلتِ لي كل شيء عنكِ؟، لا أظن.. مرة سألتك عن ماهية العملية التي أجريتها ورفضت أن تجيبيني واحترمت رغبتك ساعتها ولم أشأ سؤالك مجددًا لأني أعرف جيدًا أن ثمة وقتًا سيأتي وسيعرف كلانا كل شيء..

صمتُ.. وهل كنت أقدر إلا على الصمت حينها؟!! شعرتُ بخجل من نفسي.. معه حق، لكن ما فائدة أن أخبره بشيء انتهى؛ كما أكَّد لي الأطباء.. وهل سري الذي أخفيه سيؤثر في سير علاقتنا كما سيفعل سره الذي سيخبرني به يومًا؟!

ابتسم لي بحنان.. عبث بشعري برفق.. كنت أعلم أنه بحاجة لمن يحتضنه الآن بقوة.. لكني لم أجسر على هذا..

قلت له وأنا أرتشف بعضًا من القهوة: أكره أن أراك متضايقًا.. هذا كل شيء..

أخذ يدي بين راحتيه كالعادة.. يبدو أنه أثقل التمرين اليوم فقد كانتا خشنتين جدًا وتكادان تجرحان راحة يدي..

– أثقلت التمرين هذه الفترة.. هل جرحت يدك؟

– وهل يعد هذا جرحًا؟!

– بلى..

ثرت هذه المرة:

– لكنه لا يؤلمني.. جرحك هو ما يؤلمني.. عيناك الحزينتان وهذه المرارة التي أحسُّ بها في كلامك تقتلني..

لم يتوقع مني أن أثور هكذا.. ضغط على يدي وهو يقترب مني قائلاً: قلقة عليَّ إلى هذا الحد؟!

أدرتُ رأسي الناحية الثانية..كادت الدموع تغلبني وشعرت بصبري ينفد، كنت أريد أن يحدث شيء الليلة، أن أعرف كل الحكاية..

همس وهو يدير وجهي ناحيته: هل أُغنِّي لكِ..؟

لم أجب.. ومن داخلي تمنيت أن يفعل..

– "ما فيني شيء..حبيبي لا تقلق علي.. الجرح في طرف أصبعي بيطيب ويمكن يختفي... لما يدك تلمس يدي.."[٩]

---

(٩) أغنية للمطربة التونسية "ذكرى".

obeikandl.com

توقف..

قلت متوسلة: أكمل.. أرجوك.

بيد أنه لم يكملها غناءً بل أكملها وكأنه يلقي عليَّ قصيدة.. وعيناه تتوسلانني شيئًا لا أعرفه..

–لو تشوف جروح قلبي ويش تقول.. لو تشوف همومي وثقال الحمول..

لو تحس بظمأ روحي لفرحه.. كان صابك من مقاومتي ذهول..

ما فيني شيء..

اللي شفته في حياتي مو قليل.. لا تُغَّرك ضحكتي حزني أصيل..

ما يفارقني أبد لو حتى لحظة.. ما عطى أحبابي من وصله بخيل..

ما فيني شيء..

العذر منك حبيبي والسموح.. غار جرح القلب وأجبرني أبوح..

لا تلومه من عذابه حن نفسه.. واختلط الجد مع بعض المزوح..

ما فيني شيء..

لم يحاول إخفاء تلك الدموع التي تجمعت بحياء في عينيه.. وأنا تعبت وتعب قلبي.. وأردت أن أصرخ في وجهه.. أيها الرجل المجروح متى وكيف جرحت؟!

(٦)

اتفقتُ معه آخر مرة رأيته فيها أن يتفرغ قليلاً لاستذكار دروسه، وأنا بدوري أتفرغ لمراجعة الطبيب وزيارة بعض الأقارب والأصدقاء لأن أختي بدأت تلقي على مسامعي تعليقات ساخرة وموجعة أحيانًا.. كانت تخاف عليَّ.. أعلم..

لطالما كانت ولا تزال أمي الثانية التي تمنحني شعورًا بالأمان والطمأنينة كلما تفحصت تفاصيل وجهها ونظرتها الحنونة، وزيادة على هذا كانت مها قد رجعت من رحلتها إلى سان فرانسيسكو والحمد لله أنها وصلت في ذلك التوقيت فقد كنت بحاجة لرؤية شخص والحديث معه ولو على سبيل التفريغ لشحنات توتر وحيرة تكاد تقضي عليَّ..

عانقتني بشوق...

– هل اشتقتِ لي؟.. لا تكذبي أعلم بأن هذا الوغد أخذ وقتك وتفكيرك..

ضربتها على كتفها وأنا أنهرها قائلة: لا تقولي عنه هذا الكلام..

ضحكت وهي تردد كلامي بنفس الطريقة: لا تقولي عنه هذا الكلام.. غرقتِ يا يارا.. حمقاء..

تبادلنا أحاديث كثيرة عن رحلتها وعن أخباري الصحية.. وشرحت لها حيرتي من غموض رامي ومما يخفيه عني، وحيرتي إزاء ما يجب فعله..

قالت: أعتقد أنه يشتري بصمته وقتًا أطول لا غير، هو يعلم أنه لو أخبرك بما يخفيه ستتركينه فورًا، وبما أنك مسافرة وستغادرينه في كل الأحوال فلمَ التسرع بإخبارك الآن وحرمان نفسه من لقائك والتواصل معك.. هل قال لكِ أحبكِ حرفيًا؟

لويت شفتي بامتعاض قائلة: لم يقلها حرفيًا، لكنه قالها لي ألف مرة بطرق أخرى..

صاحت بسخرية واستهجان: الله.. وأنت لا تقولي لي إنك قُلْتِها..

نظرت إليها وأنا أتنهد: لا بالطبع وهل أبدو لك حمقاء بلا كرامة..

– أووف.. بدأت أفكر بنفس طريقتكم المعقدة.. لكنه عربي أولاً وأخيرًا وعليك أن تحذري أفكاره.. حسنًا فعلتِ..

كان يحادثني هاتفيًا كل يوم، وقررنا أن نحدد موعدًا لندردش على الإنترنت في وقت فراغه.. كان مضحكًا عندما يقطع الدردشة ويتصل بي بعد أن يضيق ذرعًا بانتظار رسائلي أو تلك اللخبطة وسوء الفهم التي عادة ما تحدث عند الدردشة.. ورغم كل ما كان يدعيه

من المرح إلا أن صوته وهذه الشاشة لا تزال تنقله لي حرفيًا.. كان ثمة شيء يدور في رأسه.. هل قرار الاعتراف لي بما يخفيه كان يشغله إلى هذا الحد؟

قال لي ونحن على الإنترنت: لماذا يضع القدر في طريقي فتاة عليها مغادرتي بعد مدة.. تصدقين أحيانًا أتمنى أن تتوعكي ويأمرك الطبيب بالبقاء إلى آخر العمر هنا..

– وهل عليَّ أن أقول لك يا أحمق بأني على استعداد للبقاء معك إلى آخر العمر.. ولماذا سيُنهي رجوعي في نظرك ما بيننا؟ ألم يخطر في بالك المشوش بما لا أدري والمشغول بما لا أعرف بأننا قد ننتهي لبعضنا ونعيش تحت سقف واحد؟! أم أني في قلبك محطة تنوي الترجل عنها قريبًا؟! أنا فيك أنوي دفن عمري.. وإن أردتني كتبت لك صكًا أبديًا يعطيك الحق في التصرف بي كما تشاء.. الكون عندي بكل ما فيه من جمال اختزله الله في عينيك وفي آرائك التي تدوخني. لماذا أنت من دون الخلق أجمعين لا تعرض عليَّ أن أستمر في حدود مملكتك.. أن أدور في فلكك؟! لِمَ كلما جاء الحب أعطانا من نفسه القليل.. لِمَ العشق هكذا متعب.. وعمره قصير؟!

(٧)

كان الجو باردًا كما لم يكن من قبل وشعرت بأني أفتقد رامي كثيرًا رغم كل الرسائل التي كنا نتبادلها يوميًا عبر الهاتف.. كنت أعرف أن هذا هو وقت تمرينه في النادي؛ ومع هذا اتصلت به وتركت له رسالة صوتية قصيرة (هل ستطيل الهروب؟)....

اتصل بي بعدها بساعة قائلاً: أنتظرك تحت العمارة الآن.. انزلي..

ارتديتُ ثيابي على عجل.. وعندما دخلت السيارة قلت بسرعة: كنتُ على وشك أن أتناول العشاء وأكاد أموت جوعًا..

ابتسم وهو يضم يدي قائلاً: سآخذك إلى مطعم صيني ستحبينه كثيرًا.. أنا أيضًا جائع..

وفي ذلك المطعم الصيني الهادئ جلسنا.. كنت أحب معظم الأصناف الصينية، لكني لم أكن أحب الشاي الذي يقدمونه والذي كان رامي يحبه كثيرًا..

ضحكتُ من قلبي وأنا أقول له: يا إلهي كم نبدو مختلفين في مسألة أصناف الطعام والشراب..

لكن لا يبدو أن هذا كان هو الاختلاف الوحيد بيننا..!

ففي تلك الليلة انفجرت أول مشكلة في هذه العلاقة الهادئة..

كنا نتحدث عن السياسة والوضع الراهن في الأراضي المحتلة، ولم تكن تعجبني طريقته المحايدة في الحديث عن القضية الفلسطينية وكأنما يتحدث عن قضية هو ليس طرفًا فيها وأنا كنت أرى أن الحيادية في موضوع كهذا غير مطلوبة فأقل ما نقدر على فعله هو مؤازرتهم معنويًا، لكنه كان يرى أننا نحن العرب ننظر إلى المواضيع والقضايا بلا موضوعية وبعاطفة غير مطلوبة ولا فعالة.. لم يكن مخطئًا في كلامه، لكني لم أحب نبرة الحيادية التي يتحدث بها.. كنت أريده ربما متعصبًا ومتحفزًا في موضوع كهذا أكثر.. ولم نجنِ شيئًا من هذا الحديث إلا إصابة الجو بيننا بالتوتر..

قال لي: لم أقابل فتاة تحب الحديث عن السياسة مثلك.. ثم مالكِ أنتِ والسياسة؟ دعيها لأصحابها نحن لسنا إلا عاشقين نسرق لحظاتنا من زمن قد لا يجود علينا بوقت أطول.. السياسة تفسد جو العشق وتفسد أنوثتك..

كان في كلامه تلميح ما ومحاولة لإغاظتي واستفزازي بلا شك.. لم أعلِّق على تلميحه لكني قلت فيما يخص الحديث عن السياسة: إذن أنت تراني غير مؤهلة لحديث من هذا النوع.. هذا اختصاص رجالي في عرفك..

لكنه لم يجبني.. بل كان يشاكسني بنظرات تثير أعصابي أكثر.. قال

مبتسمًا بعد أن شعر أنه نجح في إغاظتي وإثارة أعصابي: أنتِ اختصاصي الوحيد وقضيتي الأوحد..

– أنت تهرب من الكلام..

اقترب مني لكن هذه المرة كثيرًا.. جفلت.. ابتسم وهو يقول بمرح:

– لا تخافي أريد فقط أن نتوقف عن أي حديث يوتر أعصابنا أكثر..قولي لي لماذا أنتِ جذابة الليلة، أعني أكثر من أي ليلة سابقة،

قلت بحنق وغيظ: لا أدري..

ضحك من أعماقه..

– عنيدة..

لكن هل كانت السياسة أكبر اختلافاتنا..

ليتها كانت..!!

فقد تشعَّب الحديث في ذات الليلة وتطرقنا إلى مواضيع عديدة حتى كان الحديث عن الجنس، لم أكن لأتحرج من طرق موضوع حسَّاس كهذا إذا ما كنا سنتناوله علميًا، فضلاً عن أن علاقتي برامي كانت قد اجتازت حدودًا معينة تسمح بحديث منفتح كهذا دون الإحساس بالخجل، غير أني ولغرابة الأمر لم أكن لأجرؤ على حديث من هذا النوع باللغة العربية...

كانت صدمة عنيفة لي عندما قال بانفعال:

– لا شيء اسمه ممارسة حب، ما نمارسه هو الجنس فلمَ التحايل على الأسماء والأفعال وتضليلها بمسميات أخرى؟

استغربت لانفعاله المفاجئ ومنطقه الغريب.. قلت بهدوء وأنا أتفحص ملامحه الثائرة لأول مرة:

– هل تعني أن إحساسك بجسد فتاة تحبها هو ذات الإحساس بجسد فتاة التقطتها من الشارع؟

قاطعني قبل أن أكمل:

– قطعًا.. الاختلاف هنا ينحصر في إحساسي بروحها وليس بجسدها، أما عمليًا وفعليًا فأنا أمارس مع كلا الجسدين ذات العملية.. أمارس الجنس وليس الحب..

ابتلعتُ ريقي وأنا أشعر بكلامه قاسيًا وفيه شيء من التحدي اللامفهوم:

– أنا لا أبحث عن التعريف العلمي للعملية الجنسية، أنا أبحث عن تعريف الإحساس لجسد تحبه وجسد تمقته وآخر لا يعني لك شيئًا..

– الجسد هو الجسد وما أمارسه فعليًا مع جسد حبيبتي هو ما أمارسه مع جسد غانية..

سكتُ...

obeikandl.com

كان إصراره عنيفًا وكأنما كان يتعمد جرح مشاعري.. كان يتحدث بلا مبالاة لكنها مفتعلة إلى حد كبير.. لماذا كان يحاول نقل صورة خاطئة عن نفسه! ماذا كان يحاول أن يثبت لي؟!

لم أتصور أن تتصعد حدة النقاش بيننا لهذه الدرجة.. شعرت بتوتر كبير، لكني قلت بهدوء مصطنع:

– أكره النقاش عندما يتحول إلى عراك لا جدوى منه، أنت حرٌّ في رأيك لكنه رأي جاء بالتأكيد خلاصة لتجارب غير موفقة وهي ما قادتك إلى هذا المفهوم الخاطئ عن الجنس.. يؤسفني حقًا أنك تفكر بطريقة بدائية وفظة وأنت شخص يحمل وعيًا وفكرًا وعلمًا يؤهله لتفكير أفضل بلا شك..

قاطعني ولكن بحدة وفظاظة أكثر هذه المرة:

– لا داعي للأسف وتفكيري لن يؤثر في علاقتنا لا بالسلب ولا بالإيجاب لأني لا أنوي أن أمارس معك لا جنسًا ولا حبًا!!

– ماذا؟!

نظرتُ إليه، لا أصدق ما سمعته للتو، تجمدت أصابعي على الطاولة ولا أدري إن كنت أفلحت في إخفاء تلك الدموع.. صوتي بدا متحشرجًا ومتقطعًا وعجزت أن أبدو طبيعية وأنا ألملم أغراضي وأقف قائلة: دعنا نرحل فأنت تتعمد جرحي بلا سبب..

وكأنه في تلك اللحظة فقط أدرك خطأه.. لكن ألم تكن تتعمده أصلاً يا رامي؟! لا داعي لنظرة الأسف والندم هذه؟! واعتذارك الصامت هذا غير مُجْدٍ الآن!! ألم يكن من الأسهل أن تبوح بما يعتمل داخلك.. هذا الداخل الذي يخفي عبئًا ما ويدرك أن إزاحة الستار عنه قد تُغَيِّر الكثير.. أما كنت قد ارتحت وأرحتني من هذا العذاب!!

obeikandl.com

(٨)

بدأت الأيام تعلن تناقصها وعدها التنازلي الذي لا نشعر به إلا في أوقات تصبح فيها الدقيقة في أهمية سنة..!

أتممتُ آخر زيارة لي مع الطبيب والذي أكَّد لي أني أستطيع العودة وقتما أشاء، ومع هذا فقد كانت أختي ترتأي أن أؤجل السفر قليلاً، كانت تخاف من حدوث مضاعفات وأنا بعيدة، خاصة وقد لاحظت شرودي الدائم وانقطاع التواصل بيني أنا ورامي في الأيام الأخيرة فتصورت أن هذا سيؤثر على صحتي ونفسيتي خاصة بعد أن أعود.. قد تكون محقة فأنا لا أستطيع ادعاء القوة والتماسك.. لكن ما أدركه تمامًا هو أني يجب أن أتدبر أمري جيدًا مع هذا الرجل وأفكِّر مليًا في الخطوة القادمة!!

لقد مرَّت ثلاثة أشهر منذ وصولي، أجريت العملية في الأسبوع الأول وتعرفت على رامي في الأسبوع الثاني والتقيته في الأسبوع الرابع أو الخامس تقريبًا، وها هو العالم هنا يحتفل بأعياد الميلاد وقدوم السنة الجديدة.. بينما العالم الإسلامي يودع رمضان ويستعد للاحتفال بعيد الفطر المبارك.. آه كم يبدو رمضان باهتًا هنا في غياب المآذن وذلك الجو الذي يزورني بعشق كل سنة.. كنت أتوق فعلاً للرحيل

بسرعة لأتلافي ولو بعضًا من أيامه وسط ذلك الجو الروحاني والصلاة التي تختلف في معناها وإحساسنا بها عن سائر الأيام.. وذلك الكم اللامعقول من البرامج والمسلسلات على شاشة التلفاز.. وتلك الدقائق الحرجة قبل الفطور، واللحظة الرائعة عندما يهتف المنادي (الله أكبر) فيجري الناس نحو موائدهم وكأنما سيأكلون آخر زادهم في الحياة.. أين هي هذه الطقوس الدينية الرائعة وذلك الليل الجميل المزدحم بأجساد الناس التي تشتري كل شيء من كل مكان؟!

كان رامي يعلم أن وقت رحيلي قد أزف، ورغم هذا بدا صامتًا وهادئًا بعد تلك الليلة.. هل كان حقًا يحترم بسكوته هذا رغبتي عندما طلبت منه ذلك اليوم وأنا أترجل عن السيارة ألاّ يهاتفني ولا يتواصل معي بأي شكل من الأشكال؟! لقد كنت بحاجة ماسة للبقاء مع نفسي والتفكير بهدوء، أم أنه هو الآخر كان محتاجًا لفترة سكون يعيد فيها ترتيب حساباته معي والتي يبدو أنها كانت خاطئة إلى حد بعيد!!

كان من المفترض أن نستغل هذه الأيام في توثيق مشاعرنا وشحنها قدر المستطاع قبل مغادرتي، لكن ها نحن نحاكي برودة الشتاء وندَّعي اللا مبالاة، ومع هذا كنت على يقين أن الحقيقة ستظهر قريبًا وأن لقاءنا القادم سيكون الفيصل في هذه العلاقة الغريبة..

لكن حدث ما أنساني رامي وموضوعي معه..

كنت قد لاحظت تغيب مها وعدم اتصالها بي لأكثر من ثلاثة أيام وكنت أنوي الاتصال بها في ذلك اليوم عندما رنَّ الهاتف في البيت وكان الرقم على الشاشة هو رقم مها.. ابتسمت وأنا أجيب: هاي مها.. أين أنتِ، كنتُ على وشك الاتصال بكِ بعد قليل؟

لكن المتصل لم يكن مها وإنما والدتها.. كانت تبكي وصوتها يرتعش وبالكاد تستطيع تجميع كلام مفهوم.. فهمتُ منها أن مها ضمن ستة شباب آخرين يرابطون بجانب البيت الأبيض مضربين عن الطعام والشراب منذ ثلاثة أيام.. يا إلهي!

لقد كانت أختي تخبرني البارحة فقط عن هؤلاء الشباب وشجاعتهم اللا متناهية في تعريض أنفسهم للموت لمجرد لفت نظر العالم إلى القضية الفلسطينية.. كانت الأحوال في الشارع العربي تغلي خصوصًا بعد مقتل الطفل محمد الدرة على مرأى ومسمع من المجتمع الدولي الذي قرَّر ممارسة الخرس والصمت المطبق.. لِمَ لا ونحن العرب أصحاب القضية لا نبدو أحسن حالاً!!

لقد كنتُ مع مها في أخر مظاهرة أمام البيت الأبيض حين توافد العرب من معظم الولايات الأمريكية للمشاركة في تلك المظاهرة السلمية والتي كادت تتحول على يد مها وبعض رفاقها إلى مظاهرة

دموية عندما كانوا على وشك الاشتباك مع بعض اليهود الذين أخذوا صفًا جانبيًا وهم يرفعون شعارات صهيونية معادية للعرب، مثيرة للاشمئزاز والتعجب في آنٍ واحد، ولولا أني أمسكتها أنا وصديقها التونسي إبراهيم لحدث ما لا تُحمد عقباه..

لم أتخيل أن مها كانت واحدة من هؤلاء السبعة.. أي عالم هذا يا مها الذي تخاطبين؟!

أي عدالة نرجو من سكان هذه المخروبة؟! أنتِ تلصقين جسدك الناعم الطاهر بجدار شيطاني خلفه يقبع إبليس يحيك ضدنا أبشع خطط المجازر والقتل..

يا رب أسألك حمايتهم...

من جملة ما أخبرتني به أختي البارحة أيضًا، أن السيد عزمي أحمد ذلك الملياردير الفلسطيني الذي عرفتني عليه في السابق كان يذهب إليهم يوميًا ليغذيهم ببعض العسل حتى يبقوا على قيد الحياة فقد كان أحدهم هو ابن صديق عمره الذي توفي قبل سنة وأوصاه أن يرعى ولده بعد موته..

كان موعد الإفطار قد حان بينما أنا أتصل بالسيد عزمي أرجوه أن يأتي حالاً ليأخذني إليهم..

وهكذا كان...

كانت مها تلف رأسها بالشال الفلسطيني وتجلس مع رفاقها على الأرض في حالة واضحة من الإعياء والتعب.. كان ثلاثة منهم يتمددون على الأرض في شبه إغماء ويبدو أن الملياردير الفلسطيني لم يكن وحده فقد كان بعض أصدقائهم وأقاربهم متفرقين هنا وهناك يحاولون إقناعهم بالعدول عن هذا الإضراب،وكذلك بعض الجماعات المنتمية للصليب الأحمر وجمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان كانت هي الأخرى تحاول ثنيهم وتزوِّد بعضهم بالعلاج قسرًا، أما الشرطة فكانت تدور حولهم بلا اهتمام وكأنما قد اعتادوا هذا المنظر ولم يعد يشكل لهم مصدر قلق..!!

اقتربتُ من مها التي كانت تتوسد ذراع صديقها إبراهيم، مغمضة العينين.. شاحبة الوجه.. أمسكتُ يدها برفق وأنا أبتسم لإبراهيم قائلة: كيف حالكما؟

سمعت مها صوتي ففتحت عينيها ببطء.

ابتسمت ابتسامة باهتة متعبة وهي تضغط على يدي قائلة بصوت واهن: أين أنتِ؟

احتضنتها بقوة ولم أتمالك نفسي.. بكيتُ بحرقة.. لا أدري إن كنتُ أبكي عليها أم كنت محتاجة للبكاء أصلاً!!

همس لي السيد عزمي: جئنا لنساعدهم على تناول شيء من العسل.. لا للبكاء يا يارا..

كانت مها تبتسم وتربت على شعري.. صعقت وهي تقول لي: ماذا فعل بكِ ذلك الوغد؟!

كدتُ أنهار..

لقد فهمتْ بكائي.. شعرتُ بالخجل من نفسي..

كفكفتُ دموعي بسرعة وأنا أقول لها بحزم: إذا أردتِ أن تعرفي ما فعل بي ذلك الوغد عليكِ تناول شيء من العسل.. هيا..

لم يكن من السهل إقناعها لذا توجهت بكلامي بعد ذلك لإبراهيم قائلة: هل تريدها أن تموت؟!

قال بسرعة وهو يضم يدها بقوة: لا.. إمَّا أن نبقى معًا، أو نموت معًا.

ويبدو أن فكرة موتها أرعبته.. اقترب منها بسرعة وأخذ يهمس لها بالكلام همسًا، وأنا أراقب هذا المشهد العشقي، أحاول أن أتأكد أن هذه التي أمامي لم تكن سوى مها!!

متى كان كل هذا الغرام يا مها؟!

أنتِ التي اعتقدت أنك لا تغرمين.. ها أنتِ عاشقة حالك حال أية حمقاء، وعيناك الممتلئتان براءة وشقاوة تفضحان حبًا عميقًا.. لماذا لم تخبريني؟! هل لأنه سرك الوحيد الذي تجرأت عليه حياتك الصافية الصريحة!!

أقنعها إبراهيم أن تتناول ولو شيئًا قليلاً، وفعل هو الشيء ذاته بعد أن أقسمت أن يأكل كما فعلت هي..

جاءت والدة مها ووالدها فتركتها معهما وأنا أحاول مع السيد أحمد إقناع البقية التي رفضت أن تتناول أي شيء حتى الماء..

قال السيد عزمي في محاولة أخيرة لإقناعهم: لو متم اليوم سيصحو كلينتون غدًا مرتاحًا من هؤلاء الشباب الذين أقلقوا مضجعه وهم ملتصقون إلى جدار بيته.. دعونا نُقلق أوقاته يومًا آخر.. هيا..

ثم التفت إلى سعد ابن صديقه المتوفى وهو يقول له: لأجل والدك الذي تركك أمانة في عنقي.. حتى تبقى يا بني تناضل.. حتى تستمر وتقاوم.. لو ذهبتم أنتم من سيبقى يدافع؟! أنا ومن في عمري ما عدنا حتى نحلم بقبر هناك يضم أجسادنا الميتة فحتى موتنا عليه أن يعتاد الاغتراب والتيه!

دموع المليارديرانحدرت بكبرياء على وجهه.. ربما كان يرى شبابه الذي ذهب وهو بعد لم يَرَ وطنه حرًّا.. شبابه الذي قضى نصفه يقاوم المغتصب ونصفه الآخر يجمع الثروة علَّها تكون بديلاً عن الأرض والكرامة.

هل كانت؟!

سعد لم يحتمل أن يرى دموع السيد عزمي فرضخ وهو يتناول ملعقة واحدة ويرمي نفسه في حضن الملياردير وهو يناديه (أبي).. هل كان سعد في تلك اللحظة أكثر من طفلٍ متمرد يحتاج للحنان قبل أي شيء آخر؟! وهل أتاح له الزمن أكثر من حلم الموت؟!

طلبتُ من والدي مها أن يرحلا لأني لا أنوي أن أبارح هذا المكان دونها، وكذلك طلبت من السيد عزمي أن يترك معي الماء والعسل ويذهب هو..

همس لي قائلاً قبل أن يذهب: وضعهم اليوم متدهور جدًا ولا آمل خيرًا.. لن يصمدوا أكثر من بضع ساعات أخرى، لذا اتصلي بي فور حدوث أي شيء ولا تقلقي فسيارات الإسعاف على أهبة الاستعداد لنقلهم في أي لحظة..

نظر نحو سعد بأسى ثم أكمل: يارا.. سعد بحاجة لدعم معنوي لا تبخلي عليه أرجوكِ وحاولي إقناعه بتناول ملعقة أخرى. آه تذكرت.. تلك الفتاة لا أهل لها هنا ولا أحد يأتي للاطمئنان عليها.. تكلمي معها قليلاً وسأعود لاحقًا حتى وإن لم تتصلي بي..

جُنَّت أختي عندما أخبرها السيد عزمي أني أنوي البقاء معهم.. اتصلت بي وهي تقول لي إنها ستأتي لتأخذني فورًا.. قالت بانفعال: يجب ألاّ تتعرضي لإجهاد من أي نوع حتى وإن أخبرك الطبيب بأن

كل شيء أصبح على ما يرام.. هل تريدين الانتحار؟!

قاطعتها بهدوء قائلة: حبيبتي..أنا سأبقى مع مها فقط ولا أنوي الإضراب عن أي شيء اطمئني.. لا داعي لأن تأتي.. أقسم لكِ أني سأكون بخير..

لكن لم تمر ساعة حتى كانت أختي أمامي وقد جلبت الكثير من الطعام والشراب وبطانية ثقيلة ولم تتركني إلا بعد أن أكلت وشربت أمامها وهي تراقبني ثم لفَّتني بشال ثقيل وهي توصيني بالاتصال بها إذا ساءت الأمور، فوعدتها خيرًا..

الإعياء والتعب لم يمنعا مها من إطلاق بعض الشتائم عندما عرفت أني لا أنوي مغادرتها،ولم أفعل شيئًا أكثر من رسم ابتسامة على وجهي.

كنتُ بين الحين والآخر أحاول إقناع بعضهم بشرب الماء أو تناول شيءٍ من الطعام أو العسل. وكانوا لغرابة الأمر يمازحونني ويضحكون معي رغم كل ما يشعرون به في أجواء كهذه.. أي إيمان هذا الذي تتحلون به؟!

وهل يستطيع المغتصب إلاّ احتلال الأرض؟!

كنتُ قد بدأت أشعر بالتعب عندما أمسكتْ مها بيدي قائلة بصوت شاحب واهن: اجلسي إلى جانبي، أريد أن أنام على حجرك.. كرهتُ هذه الجدران القاسية أكثر من كراهيتي للموت.. أشعر

بظهري يكاد ينكسر..

قلتُ لها بجزع: لا تذكري سيرة الموت..

ضغطت على يدي وهي تقول بصوت هامس خائف: كيف تشعرين يا يارا؟ ماذا قال لكِ الطبيب؟ كنتُ أفكر فيكِ طوال الوقت رغم كل هذا..

قاطعتها: قال إني سأتحسن إن أنتِ عدلت عن فكرة الموت جوعًا وعطشًا..

ابتسمتْ.. كانت تنظر إلى إبراهيم الذي كان يسند رأسه إلى الجدار وعيناه مغمضتان.. قالت: لا تخافي، لا ننوي الموت.. نحن نحب الحياة أيضًا، لكن لا بد للإنسان أن يحيا بكرامة أو يموت بكرامة.. أمّا أن يفقدها في الحالتين فهذا ذلٌّ كبير لا أستسيغه..

وهل كانت عفوية مها تسمح إلا بقول الحقيقة!!

حاولت أن أغيِّر الموضوع فهمست لها بخبث: هل تحبينه؟!

كادت تضحك لولا إعياؤها الشديد، فاكتفت بتلك الابتسامة التي قلما تفارق محياها.. – أبدو حمقاء وأنا عاشقة أليس كذلك..

توقفت عن الكلام فجأة وهي تتأمل إبراهيم، ثم استطردت وهي تضع رأسها على حجري وتغمض عينيها: هو يريد أن نرزق بستة أطفال، مجنون.. أنا أريد أن أرتبط به حتى يبقى هو طفلي الوحيد

الذي أدلل وأحب، وستة أطفال لن يتيحوا لي هذا، لقد كذبت وقلت له إني موافقة حتى لا يعدل عن فكرة الزواج بي لكني لن أنجب له أكثر من طفلين..

كان إبراهيم قد أفاق من غفوته وأخذ يستمع إليها بعد أن غمز لي ألاَّ أشعرها بذلك.. وبالكاد تمالكنا أنفسنا من الضحك..

نامت مها على وضعها وغطاها إبراهيم بما تبقى من البطانية التي كنت أفترشها ولف المكان هدوء مقلق.. لم أستطع النوم وأنا أتنقل ببصري من واحد إلى آخر لأتأكد أنهم ما زالوا يتنفسون.. حاولت أن أنام لكني كلما أغمضت عيني تذهب أفكاري إلى رامي ترى ماذا يفعل الآن؟ هل تفكر فيَّ؟ هل توصلت إلى حل؟ هل قررت الاعتراف لي بما يكدرك ويكدر علاقتنا؟ وهل عليَّ أن أستعد لنسيانك تمامًا؟!

شعرت بالضيق.. تحسست نبض مها وبينما كنت أرفع رأسها بهدوء عني حتى لا تستيقظ من غفوتها.. رنَّ هاتفي المحمول ليفزع الجميع الذين انتفضوا من أماكنهم وهم ينظرون إليَّ.. اللعنة لقد نسيت إغلاق النغمة.. شعرت بالإحراج واعتذرت لهم بصوت خافت.. وعاد الجميع إلى وضعه السابق عندما أدركوا أن الصوت لم يكن سوى صوت الهاتف، لكن هاتفي لم يسلم من شتائم مها التي نهضت من على حجري ووضعت رأسها على كتف إبراهيم..

شعرت بشيء ما يعتصر في أحشائي وأنا أرى رقم رامي على الشاشة.. هل أرد؟

ابتعدتُ مسافة كافية عن الجميع حتى لا يسمعني أحد..

قلتُ ببرودة وبصوت خافت إلى حد ما: نعم..

قال ببرودة مماثلة: كيف حالك؟

– لا بأس وأنت؟

لم يرد على سؤالي.. بل قال بصوت بدا متجهمًا: أين أنتِ؟ تتحدثين بصوت منخفض.. وكأنك في الشارع أيضًا..

قلت بصوت تعمدت أن يبدو غير مكترثٍ بما يقول: بلى..

– ولماذا تتكلمين بصوت منخفض.. هل أختك معك؟

– لا.. أختي في البيت..

ابتسمت.. أعجبتني نبرة الشك في صوته، فقررت أن أطيل متعتي قليلاً...

بدا صوته يفقد ذلك الهدوء والاتزان ويبدو أكثر حدة: مع مها..

زفرت بضيق: لماذا تريد أن تعرف أين أنا ومع من أنا؟! هل حقًا يهمك هذا ؟

تنهد.. شعرت بضيقه ومرارته، تساءلت إن كان ما أفعله الآن صوابًا..!!

obeikandl.com

– هل تحاولين أن تردي لي الصفعة؟

قلت محاولة ألا أفقد هدوئي: أي صفعة هذه التي تتكلم عنها؟! أنت لم تعبر إلا عن نفسك والصفعة كانت على وجهك بالتأكيد..

لم يرد.. أقفل الهاتف..

ابتسمت.. تنهدت براحة كبيرة.. لن تمضي ليلتك هادئة يا رامي ولا ضير أن يفارقك النوم وتحرقك نار الغيرة قليلاً..

لكني وبمجرد رجوعي كان الجميع يحيطون بتلك الفتاة التي أوصاني عليها السيد عزمي قبل ذهابه.. هرعت إليهم بسرعة قالت لي مها بسرعة: الفتاة حالتها خطرة.. أنا لن أستطيع تركها تموت..

لم أكن أسمع ما تقوله مها.. كنت أتصل بالسيد أحمد الذي أكَّد لي أن سيارة الإسعاف ستكون موجودة خلال لحظات.. وكان فعلاً ما قاله، ونقلوا الفتاة إلى المستشفى..

وكأن ما حدث لتلك الفتاة خلَّف انكسارًا في وجوههم وأرواحهم، بدوا ذاهلين.. صامتين.. كان سعد أكثرهم ذهولاً.. وكأن فكرة الموت اتضحت بشاعتها في لحظة.. ولم تمر ساعة ونصف الساعة إلا وبدأ الجميع يتداعى واحدًا تلو الآخر.. لم يفارقنا السيد عزمي الذي ظل يحتضن سعد.. سعد الذي لم يصدق أن عليه غدًا أن يصحو ليمارس حياته العادية وكأن ما كان لأكثر من أربعة أيام .. لم يكن..

سيارة الإسعاف لم تفارق المكان وبعد قليل أُخذ الجميع رغمًا عن أنوفهم إلى المستشفى رغم أن اثنين ومعهما مها لم يكونوا بحالة خطيرة لكنهم كأنما كانوا عقدًا وانفرط لينهار الجميع..

وفي المستشفى كنت أجلس وأنا لا أصدق كل ما حصل.. مها انهارت بطريقة هستيرية عندما غاب إبراهيم عن الوعي..

شعرت وكأني أعيش تفاصيل مشهد سينمائي سينتهي بعد قليل.. كان والدا مها في حالة يرثى لها وبدأ بعض أقاربهم وأصدقائهم يتوافدون على المستشفى..

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا عندما رأيت أختي مقبلة نحوي بسرعة: كيف أنتِ؟

نظرتُ إليها بعتاب: عليك أن تسألي عن مها والجميع أما أنا فكما ترين.. بخير والحمد لله..

– كلا أنتِ لستِ بخير.. هل نظرتِ إلى المرآة.. تبدين شاحبة ومرهقة.. حتى وإن لم يكن، يكفي حالتك النفسية لتعيدنا من حيث بدأنا..

اقترب السيد أحمد عندما رأى أختي.. وظل الاثنان ووالدا مها يتحدثون طويلاً.. أما أنا فغفوت... وعندما استيقظت؛ كنت على فراشي.

لم تذهب أختي إلى عملها في ذلك اليوم لأنها ظلت في المستشفى حتى وقت متأخر ولم تتمكن من تركي بعد أن أصبت أنا الأخرى بإعياء شديد جراء ما حدث البارحة..

بعد أن تناولتُ الطعام الذي حضَّرته في البيت وتناولتُ الدواء؛ ذهبنا إلى المستشفى للاطمئنان على مها والبقية..

تعانقنا طويلاً.. تأملتُ ملامحها.. حمدًا لله لقد عادت الحياة إليها.. وبعد أن اطمأننت على إبراهيم وسعد ومن كان لا يزال منهم في المستشفى، غادرتُ مع مها إلى منْزلها، بيد أني لم أدخل معها، وتواعدنا أن نلتقي يوم غد بعد أن تكون قد أخذت قسطًا كافيًا من الراحة..

بعدها تركتني أختي في السوق بعد أن ألححت عليها كثيرًا.. كنتُ أشعر أني بخير وأتوق لأن أتمشى في الأسواق قليلاً خاصة وأني سأسافر خلال أيام ولم أنهِ بعض المشتريات التي يبدو أنها لا تنتهي أبدًا..

ولأني عادة لا أحب حمل الأكياس في يدي فقد كنتُ أضعها في ركن الأمانات ثم آخذها قبل مغادرتي السوق.. وبينما كنت أسلم الأكياس لمسئولة الأمانات.. رنَّ هاتفي.. نبض قلبي بسرعة.. كنتُ أعرف من قبل أن أرى الرقم على الشاشة.. إنه رامي...

ولم يخب حدسي..

قلتُ: مرحبًا..

لم يرد مباشرة.. ثم قال بصوت يحمل الكثير من الحزم والتوتر معًا: سأمر عليكِ الليلة.. كوني جاهزة عند التاسعة..

وقبل أن أقول شيئًا..

استطرد بشيء من الانفعال: لا تفكري أن تقولي لا.. صبري نفد، والتفكير لا يقودني إلا إلى مزيد من الحيرة.. أحتاج إلى رؤيتك وأنتِ كذلك.. ربما الليلة نضع النقاط على الحروف..

ألقيتُ على نفسي نظرة أخيرة في المرآة.. كان جيدًا أني اشتريتُ ثيابًا جديدة.. كنت أبدو أنيقة وجميلة، وهذا منحني شعورًا زائدًا بالثقة..

كان ينتظرني في السيارة كالعادة.. سلمتُ عليه وأنا أتحاشى أن أطيل النظر إلى عينيه.. ابتسمتُ في داخلي، كأنما حدث بيننا تواطؤ ما أو شبه اتفاق سري أن نبدو بكامل أناقتنا اليوم.. كان كثير الشبه برامي الذي رأيته لأول مرة في ليلة الهالويين.. يبدو أن اللون الأسود يلائمه ويتناغم مع ملامحه بطريقة مثيرة!

توقفت السيارة أمام إحدى دور السينما..

غريب.. فرغم حبي لمشاهدة الأفلام السينمائية إلا أن رامي كان دائم الرفض أن نشاهد فيلمًا معًا، متعللاً بأنه لا ينوي هدر دقائق لا

يحدثني فيها وينظر إلي.. وكان ذلك يروقني كثيرًا!

نظر نحوي وكأنه يقرأ ما يدور في خلدي: ألم تكوني تلحين علي في الماضي أن نشاهد أفلامًا؟.. قررت اليوم تحقيق هذه الأمنية..

ابتسم لتظهر تلك الغمازات على وجنتيه..

يا إلهي كم افتقدك يا رامي..!

كان الجو متوترًا بيننا رغم محاولاته غير المجدية لتلطيف الجو.. بدأ الفيلم وكنت مدركة تمامًا أني لن أستوعب منه شيئًا.. كان رامي يغوص في مقعده وعيناه لا تفارقان الشاشة.. بعد مرور قليل من الوقت شعرت بيده تبحث عن يدي.. وهل كان من الممكن إخفاؤها؟! وهل كانت تريد أن تختفي أصلاً!!

أمسكها برفق.. ضغط عليها.. ثم ضمَّها إلى صدره..

توترتُ كثيرًا.. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟!

التفتَ نحوي.. لم أستطع فعل الشيء ذاته حتى لا ألغي المسافة الفاصلة بيننا.. ولا أظنه سيقف مكتوف الأيدي أمام تقارب من هذا النوع.. أعصابي تتوتر أكثر.. وشعرت أني غير قادرة حتى على التنفس.. هل كان يتوق إلى تقبيلي لذا لم يجد مكانًا أنسب من السينما ليفعل هذا؟ هل كان الظلام هو المشكلة في السابق؟! لطالما هددني بأنه سيقبلني يومًا في غفلة مني حتى يضمن عدم مقاومتي له؟! وكنت متأكدة أنه

سيفعلها ذات مرة.. لكن لو قيَّمنا الفرص والأوقات المناسبة فليست هذه هي الفرصة ولا الوقت الأنسب لتبادل قبلة!! ربما ظن أن القبلة ستذيب ذلك الجليد الذي نشعر به الآن وتعيد الأمور إلى سابق عهدها!!

وكأنه لم يكن ينتظر مني أن أدير وجهي ناحيته، اقترب أكثر ثم همس في أذني بهدوء: أحبك..

دارت الصالة بما فيها.. ارتعشت يدي في يده.. ضرب بكل توقعاتي عرض حائط بالغ القسوة.. أخيرًا نطق بها.. أخيرًا قالها.. ما أراده كان أكبر من قُبلة في الظلام.. ما أراده هو اختزال كل الكلام في كلمة.. اختصار كل الحديث الذي لن يجدي شيئًا في أربعة حروف.. حتى إنه قالها بالعربية.. ربما لأشعر عمقها أكثر.. وبعدها أقوى.. ربما لأن الصدق عنده لا يكتمل إن لم يُقَلْ عربيًا.. إن لم يكن عربيًا.. وهل كنت أنا سأرتجف كطير مذعور لو قالها بغير تلك الحروف المقدسة..

لكن مهلاً..

هل الكلمة خرجت مبللة.. ما هذا الذي ينحدر على رقبتي وأذني؟! هل يبكي العشاق عندما يبوحون بالحب؟!

استدرت نحوه كليًا.. كان يخفي وجهه كالطفل.. لا يريدني أن أرى دموعه الجريحة.. مسحت على شعره.. همست قائلة: لو تخبرني ما

بك؟! لو تخبرني بما تخفيه عني.. رامي حرام عليك ما تفعله بنا!!

بكى على صدري بهدوء.. واحتضنني بقوة.. حمدًا لله أن الصالة لم تكن مزدحمة وأننا جلسنا في نهاية الصف.. ولكن لِمَ أفكِّر في الناس أصلاً؟ فلتذهب الصالة كلها إلى الجحيم!!

احتضنته بقوة.. كان هذا كل ما يحتاجه رجل مجروح في لحظة كتلك..!

ابتعد وهو ينظر إلي.. قال بهدوء: هل أبدو لكِ رجلاً مهزومًا وضعيفًا؟..

مسحتُ على وجهه بأناملي وأنا أتحسس رموشه الكثيفة المبللة بالدموع..

– وما العيب في أن نشعر بالضعف ونبكي، وهل الرجل إلا بشر خلقه الله ليفرح ويحزن كسائر الخلق.. أنا أراك في هذه اللحظة أقوى رجل على وجه الأرض..

لاحت ابتسامة ممتنة على شفتيه..أمسك شعري بقوة وهو يقول:

– لِمَ كان عليك أن تتأخري.. ولماذا كان عليَّ أن أدردش معكِ في تلك الليلة؟!

عندها التفت نحونا شخص يطالبنا بالتزام الصمت..

همس رامي قائلاً: تعالي نخرج من هنا قبل أن يقوموا بطردنا.

قاد السيارة بهدوء.. أخبرني أني الليلة سأفهم كل الحقيقة..

توقفت السيارة أمام عمارة كبيرة.. أدار جسده نحوي.. المرارة تغلف ملامحه..

أمسك يدي التي عليها أن تعتاد فراقه بعد الآن.. قال بصوتٍ حاول جاهدًا أن يبدو طبيعيًا: أتعلمين، ونحن في صالة السينما تمنيت لو كنا على فراش ما ونمت في حضنك إلى الأبد.. أو لعلك علمتني لحظتها كيف يُمارس الحب..!!

سكت..

انحدرت دموع مجروحة على وجهي..هذا اعتراف لم اكن لأحلم به من هذا المغرور..

مسح دموعي.. اقترب مني.. قبَّل جبيني وشعري.. واحتضنني بقوة.. وهمس لي كثيرًا: أحبك.. أحبك.. أحبك.. سامحي غروري المفتعل في حضرة منطقك الذي ألوذ منه إلى تخاريف وأشياء أجبرتني على تصديقها الحياة.. الحياة لم تسمح لي في يوم أن أتعلم أبعد من مفهوم الجسد.. صدقيني لم أمارس حُبًا من قبل.. لأني ببساطة لم أحب أحدًا في حياتي.. لا ذنب لي أن الحياة لم تتكرم عليَّ بأكثر من أجساد لا روح فيها.. كيف كان لي أن أتعلم الحب إلا معكِ؟! معكِ كان ذلك الإحساس الذي أخفقت في ممارسته طيلة حياتي..

انهمرت وجعًا..

كان رامي.. يودعني..

ترجَّل عن السيارة.. وقبل أن يقفل الباب قال: انزلي..أريدك أن تري الحقيقة بعينيك..

ولماذا أعرف الحقيقة إن كانت لن تغير من حقيقة فراقنا الأكيد، في السابق كنت أتوق لمعرفتها لأني اعتقدتُ أني حين أعرف سنختم الحيرة بنهاية جميلة، أما أن أراها أو أعرفها حتى ألتمس لك العذر لفراقي؛ فكلا..

قلتُ: معرفتي لن تُغيِّر من الأمر شيئًا.. أنت تودعني في كل الأحوال لذا دعني أذهب، صدقني ما عدت محتاجة لأن أعرف شيئًا.. خنقت الدموع بقية الكلام...

اقترب مني وجذبني خارج السيارة ثم أغلق الباب..قال: أنا محتاج أن تعرفي.. ولن تسافري إلاّ وقد عرفتِ مدى جنوني بكِ.. جنون أدَّى بي إلى إخفاء ما كان يجب أن تعرفيه منذ اللحظة الأولى.. لكني ما كنت مستعدًا لخسارتك حتى لو كلفني الأمر أن أتصرف بنذالة..

كنا في المصعد.. ضغط على زر الدور العاشر.. توقف المصعد.. خرجنا.. قلبي بدأ في الخفقان بشدة.. مشينا في ردهة طويلة.. توقف الدم في عروقي عندما توقفنا أمام إحدى الشقق.. بالتأكيد شقته..

أخرج المفاتيح وقبل أن يفتح قال بصوت منخفض: يارا..
لكنه لم يكمل ما كان ينوي قوله.. بل فتح الباب على الحقيقة..!!

أضاء رامي المكان...

وفجأة رأيت فتاة في عمري تقريبًا تقترب وهي تقول بصوت منخفض: هاي رامي..

كانت أمريكية.. ابتسمت لي ببساطة وسلمت عليَّ ثم قالت لرامي: كل شيء على ما يرام.. ماذا عن جدول الغد؟ آمل أنه لم يتغير..

– لا لم يتغير.. كوني هنا عند الموعد..

ودعتنا وانصرفت..

وقبل أن أتمادى في تحليلي، جذبني رامي برفق قائلاً بصوت هادئ: تعالي.. وأرجوكِ كوني هادئة..

شعرت أني أصبت بالخرس.. وقلبي بدأ يغوص بخوف.. أي حقيقة هذه؟

فتح رامي إحدى الغرف بهدوء ودخلنا..

ما هذا الشيء الممدد على السرير؟! اقتربنا أكثر.. يا رب.. من هذا؟ طفل ينام كالملائكة..

نظرتُ إلى رامي.. هزَّ رأسه بنعم!!

خارت قواي.. هذا ابن رامي.. نعم إنه يحمل كل تفاصيل رامي وملامحه!!

كدتُ أسقط مغشيًا عليَّ..

أمسكني، لكني دفعته بعيدًا وأسرعت خارجة من الغرفة..

وقبل أن تصل يدي إلى الباب لأغادر نهائيًا كانت يد رامي قد سبقتني ووقف حائلاً بيني وبين الباب..

قال وهو يمسكني بيده الأخرى:

– أتوسل إليكِ أن تبقي حتى تسمعي بقية القصة..

– ومن قال إني أريد سماعها؟! ومن قال إن القصة تحتاج إلى شرح؟!

كنتُ أريد الذهاب قبل أن يحدث لي مكروه.. قبل أن أموت.. لكن رامي لا يزال واقفًا يرجوني بعيون مكسورة أن أبقى.. وأنا.. أنا الحياة كلها لن تتسع لألمي.. كنت أريد أن أصرخ.. أن أبكي.. أن أفعل أي شيء يزيح هذا الجبل من على صدري، لكني لم أقدر.. كان ذهولي أكبر من كل شيء في تلك اللحظة!!

وبدون وعي مني تساقطت دموع كثيرة.. تسابقت.. كان انحدارها قويًا على وجهي.. مؤلمًا.. لم أكن أبكي.. أبدًا.. لقد بكيت في السابق كثيرًا أو هكذا اعتقدت، إلا أنه لم يكن بكاءً.. بل دموعًا أنساها بمجرد أن أجففها.. لكن كيف يجفف القلب عندما يبكي؟! ولماذا

دموعه هكذا محرقة حتى تفضيل الموت؟!

تهاويت على مقعد وأخفيت وجهي بيدي.. اقترب مني.. حاول أن يمسح دموعي.. دفعت يده بعيدًا وقلت: تأخرت وعليَّ الذهاب...

قال بمرارة: انتظرتِ هذا اليوم كثيرًا يا يارا وأنا كذلك.. دعيني أحكي.. أشعر بحاجتي للحديث.. من حقك أن تعرفي القصة كلها وأنا من حقي أن أبرِّر جانبي رغم استحالة هذا الأمر.. لكن من حقي أن تسمعيني..

كعادته أمسك يدي وبيده الأخرى مسح وجهي وأبعد تلك الخصلات المبللة عنه..

التقت عيناي بعينيه.. كان قلبه يبكي مثلي.. ألقيت بألمي على صدره.. قلت بصوتٍ متهدجٍ شاحبٍ: رامي.. أحبك.. لِمَ كان عليك خداعي؟!

توحد بكاؤنا.. نزف قلبي على قلبه.. ليت حتى لحظة الفراق كانت هي اللحظة التي ستتحدى الزمن وتبقى دون انتهاء..!! لكن حتى لحظات الألم القاتلة عليها أن تنتهي وعلى الجسد أن يغادر تاركًا روحه رهن هذا الألم!

عرفت الحقيقة وغادرت...

حتى نبقى عشاقًا.. كان لابد من الفراق.. هكذا قدر المحبين، فلمَ الاعتراض والتأمل في نهاية مغايرة؟!

لكن هل نمت بعد تلك الليلة.. هل توقفت عن البكاء!؟ هل توقفني البكاء..؟!

obeikandl.com

(٩)

لطالما كرهتُ التوقف في مطار فرانكفورت والانتظار لست ساعات وأحيانًا لثمانِ ساعات متواصلة حتى يحين موعد الرحلة التالية.. إلا هذه المرة!! لم أشعر بساعات الرحلة ولا بساعات الانتظار.. ليس لأني وصلت حدَّ ذلك الألم الذي تفقد فيه شعورك بجسدك وإحساسك بكل ما حولك، بل لأني لم أتوقف ثانية واحدة عن التفكير في رامي وفي كلام رامي.. وقصة رامي.. وابن رامي!!

ليتني استرحتُ من الحياة قبل أن تجود علي بكل هذا الفضل من الحزن والحيرة.. ابتسمتُ بسخرية وتعجب من نفسي.. لم أخف الموت في حياتي، ربما لأني اعتدت على فكرة توقعه بين الحين والآخر، لكني لم أتمناه في حياتي حتى في أشد اللحظات وأبشعها...
على الأقل لن أتساءل بعد اليوم لماذا يموت العشاق ولماذا يفضلون الموت في معظم الأحيان؟!

مسكين يا رامي.. وهل كانت قصتك إلا قصة الملايين منا؟! إلا رفضك وإصرارك ليس منا ولسنا منه!! لقد عودونا على الانكسار وكلمة (حاضر).. على تلك الطاعة العمياء بلا قيد أو شرط وكأنما خلقنا الله إبلاً تُقاد لا حول لها ولا قوة..

لم أكن لأحبك يا رامي لولا اختلافك عن سرب القطيع الذي نمشي فيه منذ مئات السنين بأجساد ميتة وعقول أكثر موتًا.. أنت وأنا ومها وكل من شبّوا عن طوق الاستعمار الاجتماعي لإرادتنا وإلغاء عقولنا بحجة العيب تارة والحرام تارة أخرى، كان لابد لهم من دفع ثمن ما.. وأنت يا رامي كنت صغيرًا على كل ما حدث لك لكنك اخترت أن تدفع الثمن على البقاء مسلوب الإرادة..

قصتك تثير العجب فعلاً!

شاب صغير في مقتبل عمره لم يتجاوز الثامنة عشرة، يحقق له أهله أمنيته بالسفر إلى أمريكا ليلتحق بالجامعة هناك وبعد سنة واحدة يتصلون به ليبلغوه بأن عليه أن يذهب إلى المطار ليستقبل هدية رائعة.. تطير العقل.. وفعلاً طار العقل بمجرد رؤية فتاة لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة تقول له بابتسامة بلهاء بريئة، بابتسامة طفلة خجولة.. (أنا ابنة خالك..)..(زوجتك..)..

أغمضت عينيَّ وأنا أتذكر رامي.. كيف كان وجهه كظيمًا.. مسودًا.. شاحبًا.. مكفهرًا..

يحكي لي وكأنما حدث كل شيء قبل لحظة أو أقل...

دموعه كانت تخنق كلماته.. آهاته كانت تخرج من عمق العمق محملة بأكثر مما يجب على الإنسان احتماله..

واصل رامي ورموشه تلك التي أحبها، ترتعش بألم..

– أقنعها الكبار بأن عليها القيام بدور امرأة.. وأوهمها الكل بألاَّ تخاف لأنه دور سهل كشكة الدبوس، ويجب عليها ألاّ تقلق أو تسأل لِمَ الكبار أنفسهم يخفقون في القيام بهذه المهمة ويفشلون في تأديتها حتى النهاية؟! وأنا كان عليَّ أن أقبل بالأمر الواقع.. أن أستسلم وأشكرهم على هذه الهدية القيمة.. آآآآه يا يارا ما كان أقساهم على أحلامي.. عندما اتصلت ساعتها لأستفسر عن هذه المسرحية الهزلية التي أُجبرت على مشاهدتها بلا أدنى حد من الاستمتاع ليقول لي أبي بلهجة الآمر (هذه زوجتك أم نسيت أنك رجل مسلم وعليك أن تتحصن في بلاد النصارى).. كان يأمرني أن أتزوج..

ضحك رامي بمرارة..ضحك كثيرًا حتى خفت عليه..

تابع متسائلاً:هل سمعتِ بزواج يتم بالأمر؟ وكأنما يأمرني أن أغلق سماعة الهاتف أو أخفض صوت التلفزيون!! كانت تلك أول مرة في حياتي أتمرد فيها على أبي وعائلتي بل كانت تلك أول مرة أستخدم فيها تلك الكلمة المكونة من حرفين (لا).. وكانت حربًا ضروسًا كلَّفتني الكثير.. خسرت فيها كل شيء إلا إرادتي وكرامتي.. لطالما كنت ولدًا مختلفًا عن بقية إخوتي ولا أدري لماذا لم يدرك والديَّ هذا

الاختلاف ويعاملاني على أساسه.. كيف تصورا أني سأوافق؟! عجيب أمر أهالينا هذا، يفكرون بالنيابة عنا ويقررون بالنيابة عنا في أمور مصيرية لا هزل فيها.. المهم تركتها عند أخت صديق لي بعد أن قلت لها ألاّ تخبر أحدًا منهم بأمر هذا الزواج حتى لا أفصل من الجامعة.. كنت أكذب عليها، لكن كان لا بد أن أخفي هذا الأمر حتى لا أنقلب أضحوكة الجامعة ولأني كنت وقتها في بداية علاقة عاطفية مع فتاة، كان أهون عليَّ ساعتها أن أموت على أن تعرف بقصة مثل هذه.

وفي اليوم التالي كنتُ قد حجزتُ لها ومن حيث تسلمتها أرجعتها.. وفي المطار أخبرتها أن زواجنا هذا باطل لأني لم أعلم به، وأن عليها أن ترفض لأني لا أحبها ولا أريد أن أتزوج الآن، وأن كلينا لا يزال صغيرًا على الزواج. قلتُ لها كل ما بوسع ولد في التاسعة عشرة من عمره أن يقول مدافعًا عن كرامته وحرية اتخاذ قراراته بنفسه.. مسكينة كانت تبكي وهي تقول لي إنهم قالوا لها إني أحبها وأنتظر هذا اليوم على أحرِّ من الجمر.. قلت لها إنهم كانوا يكذبون عليها، وإني حتى لم أعلم بأمر هذا الزواج حتى كانت هي أمامي هنا في المطار وأخبرتني بنفسها.. كان موقفًا صعبًا لقد اعتذرت لها كما لم أعتذر لأحد في حياتي وطلبت منها أن تسامحني.. وبعد أن رحلت اتصلت بأهلي وأخبرتهم أن يخرجوا إلى المطار ليتسلموا هديتهم المرفوضة..

أطلق تنهيدة طويلة.. نظر إليَّ أطول.. كأنما يتأكد أني أُصدِّق كلامه وأني سأغفر له..

كنتُ قد استرخيت أكثر وأعصابي المتشنجة بدأت ترتخي وبدأت أستمع له بمشاعر حيادية.. أو كنت أحاول أن أشعر هكذا حتى لا أموت قهرًا..

– لم يصدِّق أهلي ما حصل.. أما أمي فقد ضُربت علاقتها بأخيها في الصميم، واجتمعت العائلة وقرَّرت بالنيابة عني أني لا بد أن أرجع عن هذا الغي والباطل..

وبعد حوالي ثلاثة أشهر رأيت أبي ومعه أخي وخالي وتلك النعجة في ذيلهم.. تصوري أقساط الجامعة ومصروفي الشهري مقابل قبولي بزواجي بها أو العودة فورًا.. حاولت إقناعهم أن ما يفعلوه خطأ في حقها قبل أن يكون خطأ في حقي.. لا فائدة.. كأنما تحدثين جدارًا أو تقنعين طوبًا.. ولأن فكرة عودتي وقطع دراستي كانت مستحيلة.. رضخت.. ورحلوا تاركين لي فتاة لم أكن حتى أقوى على النظر إليها.

تعثرت دراستي قليلاً وبتُّ أكره العودة إلى البيت.. احتقرتها واحتقرت نفسي.. كنت أريدها أن ترفض هي، أن تقول لا أريد البقاء مع رجل لا يريدني، لكنهم أقنعوها أن عليها أن تصبر على كل ما أفعله لأني ما زلت صغيرًا وبعد فترة سأشعر بقيمتها خاصة إذا

رُزقنا بأطفال، ذات القصة التي لا يريد أهالينا الاعتراف بفشلها وعدم فاعليتها..

يتوقف قليلاً.. تعبس ملامح وجهه أكثر..

– علمتْ صديقتي بالموضوع وتركتني فورًا.. حقدتُ عليها أكثر.. وبعد تفكير طويل وجدتُ أن لا حل إلا أن أحاول إقناعها هي بتركي وطلب الطلاق.. لكن عملية غسيل الدماغ التي تعرضتْ لها قبل مجيئها لم تكن هينة.. كانت تستمع إليَّ وبعد كل حديث - منطقي كان أو غير منطقي - تقول جملتها الوحيدة: (لا أريد أن أصبح مطلقة وسأصبر حتى تتغيْر)..

كانت بشعة وهي تردد كلامهم، لذا قرَّرتُ ألا أعاملها بما يرضي الله حتى تطلب هي العودة والطلاق.. لم أقترب منها أو ألمسها.. كنت أنام في غرفة أخرى ممنوع عليها حتى دخولها..! قلت لها إني أشمئز حتى من النظر إلى وجهها.. ومع مرور الوقت، بلغ بي الأمر حد أني أحضرت لأكثر من مرة فتاة ونمت معها على مرأى ومسمع منها.. أعلم كم كنت بشعًا وسافلاً، لكنها كانت حربًا بيني وبينها زاد من سعيرها احتقاري المتصاعد لشخصها وردود أفعالها غير المقبولة.. وبقينا على هذا الحال سنتين أو أكثر قليلاً حتى بدأت سنتي الدراسية الأخيرة عندما طلبتْ مني العودة ووعدتني بأنها ستطلب الطلاق

بمجرد وصولها، وشعرتُ بأنها يئست مني فعلاً وتحققتْ من كذب تلك التنبؤات التي قالت أني سأتغير مع مرور الوقت.. ورحلت.. بعدها بشهر طلب مني والدي العودة حتى نتم إجراءات الطلاق، ولم أكن أعلم أن ابنة خالي قد عقدت عزمها على الانتقام مني لكل ما فعلته بها هنا..

وذهبت؛ وليتني لم أفعل.. هناك واجهني الجميع بكل ما فعلته بها ولم يصدق أحد أني ولأكثر من سنتين لم ألمسها مطلقًا وبأنها لا تزال على حالها..

ساءت الأمور أكثر عندما أعلن والدي أني محروم من بقية أقساط السنة الأخيرة وأن عليَّ أن أدبر رأسي!! شعرت حينها بالضعف والمهانة وقلة الحيلة.. كرهت تلك المخلوقة كما لم أكره أحدًا من قبل، لم تدرك أني كنت أدافع عن كرامتها قبل كرامتي حتى من خلال كل التصرفات الحمقاء والقاسية التي كنت أفتعلها أو أفعلها معها.. لم أستطع استغلال جسد لا أحب صاحبه، وهي رفضت أن تفهم هذا وكل ما أدركه عقلها المتبلد هو أني رفضتها هي وأهنت كرامتها وأن عليَّ أن أدفع الثمن، وقد عرفتْ أن لا ثمن يستحق أن أتراجع من أجله إلا دراستي... وكان لها ما أرادت..

في تلك اللحظة ركع رامي عند قدمي وأخذ يديَّ وظلت عيناه معلقتين في عيني يستجدي تفهمي.. يتوسل غفراني..

مسحتُ على شعره وابتسمت.. كانت ابتسامة جريحة، لكنها كانت كافية لأن تشعره بالراحة.. قلت له وأنا أسحب جسدي عن المقعد وأجلس إلى جانبه على الأرض: تابع يا رامي..

استرخى رأسه على كتفي.. قبَّل أصابع يدي، وكعادته وضعها على قلبه... تابع:

– ما فعلته بعد ذلك كان بشعًا في حق نفسي وفي حقها.. لقد فقدت صوابي عندما أقرَّت العائلة الكريمة معاقبتي على ما فعلته معها وكلام والدي في الهاتف لم يكن سوى فخ..

بقيتُ شهرًا آخر يا يارا وأنا أحترق أفكِّر في حلٍّ يخرجني من هذه الورطة البشعة، وأخيرًا ما كان علي إلا أن أرسم لهم فخًا كما فعلوا معي، أخبرتهم أني ندمت ومستعد أن أفعل ما يشاءون، ولم أتصور أن يكون طلبهم بتلك الوقاحة والمهانة.. لقد طلبوا مني أن أعاشرها معاشرة الأزواج حتى أشعر ساعتها بمسئوليتي تجاهها، كنت على يقين أنها من سيرفض هذا الطلب لأن هذا فيه إهانة لها أكثر مني.. ويا للعجب عندما وافقت!...

أتعلمين في تلك الليلة ما فعلت.. جُننت.. انتقمت من تلك النعجة

التي لا كرامة لها ولا رأي.. كان ما فعلته بها أشبه بالاغتصاب.. لكن ترى من اغتصب من في تلك الليلة؟! لا يهم، فهو اغتصاب أراح الجميع وأفضى إلى هذا المخلوق الجميل النائم على سريره في الداخل..

بعدها أفهمت الكل أني لن أعود بها معي حتى أتفرغ للسنة الأخيرة.. تظاهرتُ بالرضا والقناعة وصدقني الجميع.. وعدت.. وحتى لا يشك بي أحدٌ كنت أتصل بها وأسأل عنها.. حتى انتهيتُ من السنة الأخيرة، ثم بحثتُ عن وظيفة في إحدى الشركات وقدَّمتُ طلب الجنسية وقرَّرت البقاء هنا وحصلت على وظيفة لم أكن لأحلم بها، وفورًا بعثت لوالدي رسالة قلت له فيها : (أريدك أن تعرف أن ما كنت تذلني به في السابق وترغمني على قبول قراراتك المتعنتة في حقي لأني غير قادر على الاستغناء عنه؛ قد تخطيته، وما عدت في حاجته، قل لي الآن كيف سترغمني أنت والعائلة الكريمة على وضع لا أريده بعد اليوم).. وكان رده هو آخر ما توقعت سماعه.. قال لي (لا أستطيع أن أرغمك على شيء، لكني في الوقت نفسه لست مرغمًا على تربية طفلك الذي سيأتي بعد أيام...)

لن أشرح لكِ صدمتي لأني متأكد أنك قادرة على تصورها.. لكن أتعرفين ما فعلت؟! تصرفتُ كما ينبغي لرجلٍ حُرٍّ أن يتصرف، لم

أستطع تقديم مزيد من التنازلات والعائلة كلها كانت تراهن على هذا الطفل الآتي في الطريق.. كان ورقة الضغط الجديدة التي ينوي الجميع أن يستخدمها لأبقى داخل مستعمرتهم البشعة.. لكن ردِّي هذه المرة كان أبعد من تصوراتهم جميعًا.. طلقتها وبعثت لها بورقة الطلاق.. وكان الردُّ كما توقعته تمامًا.. جاء أخي إلى هنا واستقبلته في المطار وهو يحمل بين يديه ملاكًا طاهرًا.. هذه المرة كانت هدية رائعة اسمها يوسف، وفي اللحظة التي حملت فيها ولدي بين يديّ، حملت معه سعادة وألمًا غريبًا..لم أتصور للحظة واحدة أني سأقع في غرام هذا المخلوق الصغير وفي عينيه اللتين كانتا تطالعاني بتساؤل بريء: (هل سأكون في أمان معك يا أبي؟!)...

اختفت كل تلك الملامح الحزينة على وجه رامي وطغى حنان غريب على نظراته ونبرة صوته.. لمعت عيناه وهو يتحدث عن ولده بحماس طفولي :

– في تلك اللحظة أيضًا أقسمت لعينيه الرائعتين بأني لن أفرط فيه وأني سأحميه وسأكون أباه وأمه.. يوسف هو التحدي الذي قبلته بصدر رحب ومن أجله فعلت الكثير.. كنت بحاجة لأن أشعر بأني رجل.. لأني في لحظة ما وبعد سنتين من تصرفات لا تحسب على رجل متزن؛ اعتقدت بأني ربما فقدت إحساسي بالمسئولية وتعلمت فن

الاستهتار، حتى أعادني هذا الصغير إلى رشدي.. لقد ظن الجميع أني سأضيق بتربيته ذرعًا ولن أحتمل وسأضطر إلى إرجاعه وعندها تبدأ المساومة الجديدة: نقبل به إذا أرجعت زوجتك أو تكفَّل أنت بتربيته..

لكن ها هو يوسف أصبح ابن الخامسة.. وأنا ابن الثلاثين.. لا أتصور حياتي دونه.. كنت أتمنى أن تريه صاحيًّا.. عيناه جميلتان يا يارا.. في وجهه كثير مما تحبين في وجهي، وعندما يتحدث ويتلكأ في الكلام أشعر ببهجة الحياة وكأنما كل شيء يضحك معي.. أتعرفين أنا الذي لا أتحدث معك إلاّ بالإنجليزية، لا أتحدث معه هو إلاّ بالعربية.. أعلِّمه القرآن والقراءة والكتابة بالعربية وآخذه معي إلى المسجد يوم الجمعة.. أريده أن يصبح أفضل مني بإذن الله..

ضحك..

– يا إلهي كم يشبهني هذا العفريت الصغيْر.. أتعرفين لديه نفس مشكلة الراء التي أعانيها.. لكن لا أظن أني أبدو بهذه البراءة والجمال عندما أنطقها.. ابني مميز.. صدقيني لا أقولها هكذا.. إنه يرسم بطريقة مدهشة وأظنه سيرث صوتي.. في يوم ما كنت على يقين بأني لن أحب أحدًا قدر حبي لهذا المخلوق الرائع، واعتقدت بأني معه اكتفيت من كل العالم.. حتى كنتِ أنتِ...

قبَّل عيني ومسح على شعري بحنان لا يشبهه شيء في الدنيا..

– يوسف كان الحب الوحيد الذي مارسته في حياتي.. جئتِ أنت لتعلميني حبًّا جديدًا كنتُ على ثقة كبيرة بأنه ليس أكثر من أساطير يتناقلها الناس ويستمتعون بسماعها..

كنتُ حتى تلك اللحظة أتفهم صعوبة وبشاعة كل ما حدث له.. لكني لم أجرؤ أن أقول له إن يوسف لا يمكن أن يكون عائقًا في طريقنا.. هل يخاف على يوسف مني أو يخاف ألاَّ يقبلني.. أين المشكلة؟!..

كأنما سمع أفكاري...

– يارا.. الآن المشكلة التي تمنعني من التفكير في أي شيء آخر، هي أن خالي وإخوتها يلاحقونني في كل مكان، يريدون استرجاع ولدهم بعد أن تأكدوا من فشل محاولتهم الأخيرة، ومنذ سنتين تقريبًا وأخوها هنا يتابع لها قضيتها في المحكمة.. وأصبحتْ حياتي بين السفارة والمحكمة، وبين الوسطاء الذين يبعثونهم لإقناعي بترك الولد لأمه.. قالوا إن حالتها النفسية متدهورة وإنها حاولت قتل نفسها بعد أن كلَّمتُها في الهاتف ذات مرة وقلت لها أن تنسى موضوع يوسف لأني لم أطلب منها أن ترميه ثم تطالبني لاحقًا به.. قلت لها كذلك إن يوسف أصبح هو حياتي وأنا حياته وإن فراقه يعني موتي.. وأنا متأكد

فعلاً أني لن أطيق حياة لا أراه فيها.. لقد عزفتُ عن كل شيء في الحياة إلا عن متعتي بوجوده وتربيته.. لقد فهموا أني لن أتوانى عن قتلهم واحدًا واحدًا إن هم فكروا بإبعاده عني..

لكن تأتي أحيانٌ كثيرة أشعر فيها بضيق الدنيا ويهجرني النوم أيامًا متوالية.. أخاف أن أكون قد ظلمتها مرتين، لكن باللهِ عليك ما كان في وسعي أن أفعل أكثر مما فعلت ؟! .. لقد حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أنقذها وأنقذ نفسي، لكنها رفضت وتعنتت أكثر منهم.. لم تشأ أن تفهم أني لم أكن أرفض شخصها بقدر رفضي للمبدأ في حد ذاته.. والآن فهمتْ وفهموا بعد فوات الأوان ويريدونني أن أتخلى عن يوسف.. كيف ؟! من يرضي هذا ؟! وما ذنبي أن أكون في كل مرة ضحية تخطيطهم الغبي..

لقد دخلتِ حياتي في مرحلة أحاول فيها أن أدافع عن بقائي لأنهم لو أخذوا يوسف فحتمًا هذا لا يعني شيئًا إلاّ موتي قهرًا.. لا أتصور لحظة واحدة دونه.. ثم هم لا يعرفون أنه يحبني ولن يطيق فراقي هو الآخر قد يموت إن ابتعد عني.. لا يمكن أن تتصوري كيف يصبح وأنا بعيد عنه، بالكاد تفهم تلك السفريات التي اضطر أن أتركه فيها عند زوجة صديقي لأيام قصيرة.. آه يا يارا الموت عندي أرحم من أن أضطر إلى حياة هو ليس فيها..!

لقد عرضتُ عليهم أن تأتي أمه بين كل فترة وأخرى لترى ولدها، لكنهم رفضوا هذا الحل وقالوا إن عليَّ أنا فعل هذا لا هي..

يارا أستحلفك برب العالمين اصدقيني القول هل أنا أناني؟! هل أنا مخطئ؟! لقد كانوا حتى سببًا في سلبك مني.. لو لم يضعوني في كل هذه الحرب والمشاكل لكنتِ الآن أمًا رائعة ليوسف.. وزوجة أروع لي..!!

هيا يا حياة.. احتفليني وجعًا دائمًا.. اعزفيني لحنًا مكسورًا وارقصيني بعشق مبتور.. ارسميني لوحة سوداء.. حمقاء.. علقيني على جدار الموت البطيء.. احترفيني مهنة فاشلة.. وتلاطميني بحرًا غاضبًا واصفعيني على صخور خالية إلا من منتهى القسوة..

هيا يا حياة.. لا تترددي.. انثريني وردًا باهتًا على طرقات محطمة ولا تمنعي الرياح أن تتقاذفني ألمًا ومرارة..

حدقيني فراغًا أبديًا وأدركيني مساءً لا ينتهي..!!

(١٠)

كانت القهوة في يدي باردة.. حزينة المذاق.. ترى هل احتست هذه القهوة وجعي حتى أصبح مذاقها مُرًّا هكذا؟!..

هل كنتُ كل هذه المدة أبحث عن رامي في طارق؟! أم كنت أبحث عن نفسي في الاثنين؟!..

هل كنت يا طارق من خدعني، أم أنا من خدعتك؟!

وهل كنت حقًا أريدك خاليًا؟..

وهل عندما خدمتني المصادفة لأعرف كذبك، حزنت فعلاً؟! أم كنت أضلل نفسي حتى أختبئ من الحقيقة؟! حقيقة تقول إنك لم تكن أكثر من تلك الحبة المسكنة والتي ظلت لشهور طويلة أتناولها لتسكِّن ذلك الألم الذي اغتصب عافية روحي وقذفني في قلب الحزن.

أستغرب من هذا التشابه في قدري..

فكل منهما كان لديه ما يخفيه.. رامي اعترف لي واعتذر ولم يكن بيده أن يرسم لنا نهاية أفضل من تلك!

لكن طارق ما عذره يا ترى؟! لم يكتفِ بالكذب أو خيانة شخص واحد، هذا إذا ما افترضت جدلاً أن ما فعله معي رامي كان كذبًا، لكن طارق كان يكذب عليَّ من ناحية ويخون زوجته من ناحية أخرى

وكان على أتم الاستعداد لأن تنتقل خيانته من خيانة معنوية إلكترونية إلى خيانة حسية، وإلاّ من يفسر طلبه المتكرر بأن يقابلني! وماذا كان سيحدث إن أنا فعلت؟! هل كان سيصارحني في اللقاء بأنه متزوج ولديه طفلان؟!!

وأنا تلك التي كنت لا أزال أتقلب بين جروح ما عادت عميقة ولا أصبحت بعد طفيفة، كيف كنت سأتدبر أمر الجرح الجديد هذا؟! وهل كان لقلبي المسكين أن يحتمل صدمة جديدة؟! هل عليَّ أن أعطي إفادة طبية في المرة اللاحقة بأن قلبي بأمر الطبيب لا يحتمل مزيدًا من الخيانات والكذب؟!

آآآآه....

دائمًا أنا هكذا، إذا ذكرت رامي، أشتاق له.. وعندما أشتاق له.. يعاودني ألم قلبي.. وعندما يعاودني ألم قلبي.. أبكي.. وعندما أبكي أتذكر أصابعه التي جففت دموعي، وصدره الذي ضمني في ذلك اليوم جسدًا واحتوى روحي أبدًا. وعندما أستعيد كل هذه التفاصيل، أتمزق إلى ألف قطعة وأعيد تجميع نفسي حتى أتمزق غدًا للمرة المليون.. ولأن الألم هو المكان الوحيد الذي يتواجد فيه رامي فقد كان عليَّ أن أقبل بهذا التمزق اليومي حتى أتمكن من لقائه!!

وضعت القهوة جانبًا..

كان عليَّ أن أنجز عملي قبل أن يرجع المدير.. فكرَّت أن أتصفح بريدي للمرة الأخيرة، لكني عدلت عن الفكرة.. لن أحتمل مزيدًا من الألم! تكفي ذاكرتي التي أعادتني إلى مسقط قلبي، حيث كانت ولادة الحب الأول والنشأة الأولى لأحاسيس بكر لم تعلم أن اختراقها سيكون مؤلمًا لتلك الدرجة!.

ستنجلي غيمة الحزن هذه بعد قليل وسأستعيد روح التحدي وأقرأ رسالة طارق بهدوء!...

لكن هل بعث لي؟ أم أنه قرَّر أن يلتزم الصمت بعد قراءة تلك الخواطر الجارحة؟! وهل كان بإمكاني أن أقول أقل مما قلت؟!

مرَّت أيام كثيرة والبريد خالٍ.. وكذلك أيامي..

رأيت اسمه أكثر من مرة بين أسماء قائمة المتحاورين، كان يبحث عني، أو عن شيء يشبهني... وأنا كنت أبحث عنه، فقط لأجد رامي.

كان ذلك الشبه بينه وبين رامي في حواره وطريقة تعليقاته تقلل من حدة أشواقي بل قد أنسى رامي لفترة وأغرق في خناقاتي واتفاقاتي مع طارق، لكن كيف سأتعامل مع أيامي في غياب الاثنين..؟! ترى هل حان الوقت للبحث عن وجع إلكتروني جديد أشتغل به عن التفكير في رامي وطارق معًا؟! أم عليَّ أن أتريث قليلاً؟!. لا لِمَ التريث أصلاً

وأنا قد قطعت علاقتي بطارق إلى الأبد وقطع القدر علاقتي برامي إلى ما بعد الأبد..!!

ورغم تعاقب الشهور والأيام، إلاّ أني لم أنجح في التخلص من شعور الترقب هذا في كل مرة أفتح فيها بريدي الإلكتروني وأنا أنتظر أن أجد رسالة من رامي أو حتى طارق!!

بالطبع كانت رسائل مها تتصدر القائمة دومًا وكنتُ سعيدة برسائلها التي تخرجني من جو الكآبة والحزن وفي نفس الوقت تعيدني إلى جو تلك الزيارة الأخيرة بتفاصيلها المؤلمة والمفرحة في آن واحد..

كنت أرتب فراشي قبل أن أخلد إلى النوم عندما رنَّ الهاتف!! استغربت فالساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل ولا أحد يتصل بي في مثل هذا الوقت!!

كانت مها على الخط الآخر.. صوتها مليء بالحيوية.. كانت تتدفق سعادة وهي تقول دون مقدمات:

– عليكِ الحضور الشهر المقبل...

ضحكتُ وأنا أقول:

– يا مجنونة ألقي السلام أولاً.. ما الجديد؟!

– احزري؟!

– هيا يا مها ومن أين سأعرف؟!

– لن تصدقي...

قلتُ بنفاد صبر حقيقي:

– مها أرجوك..

– أنا وإبراهيم سنتزوج الشهر المقبل..

صحت من الفرح:

– حقًا..

– نعم..

طافتني موجة حزن غريبة.. قلت بنبرة أقل انفعالاً:

– مبروك يا مها..

قالت لي بصوت متوجس:

– ما بالكِ يا يارا؟

– لا شيء.

– بلى تذكرتِ رامي! أتعلمين كنت لن أخبرك بشيء لكني سأفعل الآن بما أنكِ في كل الأحوال حزينة..

لم أعلق، لكن خفق قلبي بشدة..

– لقد رأيتُ رامي مع ابنه قبل أسبوعين تقريبًا..

قلت بصوت لا يكاد يُسمع:

obeikandi.com

– حقًا ؟..

– نعم، كنتُ أنا وإبراهيم في أحد المحلات التجارية عندما رأيته يمشي مع يوسف، كما قلتِ لي إنه نسخة مصغرة من أبيه.. كان يبدو سعيدًا..

– جيد..

– أظنه تعرف إليَّ فقد تغير وجهه عندما لمحني، كدت أتكلم معه لكني تذكرت إبراهيم الذي كان بالتأكيد سيصاب بالسكتة القلبية وكان عليَّ أن أعطيه تفسيرًا لما يحدث وحتى لا يهجرني كنت سأضطر أن أبوح بسرك..

كانت تحاول أن تضفي جوًا من المرح بدعابتها، ابتسمتُ وأنا أقول:

– دعينا من رامي الآن.. أنا فعلاً سعيدة بهذا الخبر الرائع، لكن سيكون من الصعب عليَّ حضور زفافك..

صاحت:

– أنا لا اقبل أعذارًا واهية.. ثم إني أدعوك دعوة كاملة لن تخسري شيئًا من جيبك..

قاطعتها بسرعة:

– ما هذا الكلام أيتها الحمقاء.. ظروف عملي وأشياء أخرى تحول دون ذلك وأنت تعرفين هذا جيدًا..

– بل هي الأشياء الأخرى يا يارا.. عليك أن تقتلعي هذا الرامي من داخلك اقتلاعًا، صدقيني كان بيده الكثير إن هو أرادك فعلاً ثم هي فرصة حتى تزوري الطبيب.

قاطعتها:

– الأمر لا علاقة له برامي وموعد زيارتي للطبيب لم يَحِنْ بعد.. لكن هيهات أن تستسلم مها إنها لم تتركني حتى أقسمت لها بكل المقدسات بأني سأكون أول الحاضرين..

لم أكن متأكدة أني سألتزم بالوعد...!!

هل أنا مستعدة فعلاً للذهاب ؟ وإن لم أذهب اليوم فماذا عن موعد الطبيب بعد ثلاثة أشهر ؟!

اتصلت بأختي في اليوم التالي حتى آخذ رأيها في الموضوع، فقالت لي إنها ستتواصل مع الطبيب حتى ترى إن كان تقديم الموعد لن يؤثر على شيء !. ولقد جاءني ردها في رسالة إلكترونية مفادها أن الطبيب قال إن الفرق عمليًا سيكون شهرًا واحدًا عن الموعد الأصلي وهذا لن يؤثر على مصداقية ودقة التقارير..!!

هل أذهب ؟!

كانت الفكرة مرعبة وموجعة في ذات الوقت، هل سأقوى ألاَّ أتصل برامي ؟! وإن اتصلت به، ترى ما هي الحجة التي ستقنعه بأني لا

أتمحك وأحاول اختراع مبرر حتى أكلمه؟!
كنت أعرف أني لن أتصل لكني سأظل أدعو الله أن تجمعني به مصادفة ما!

مها أرادتني أن آتي قبل موعد الزفاف بثلاثة أسابيع على الأقل حتى أتبضع معها.. لقد ضحكتُ يومها كثيرًا وأنا أسمعها تلعن نفسها لأنها لا تفهم في هذه الأمور شيئًا وفي نفس الوقت لا تثق بذوق والدتها التي تصر على شراء كل شيء، غير أنه كان من المستحيل أن أغادر قبل موعد زفافها إلاّ بثلاثة أيام فقط...

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان!! لا أقصد في حسباني أنا، بل في حسبان العالم أجمع!!
انحرفت الطائرة عن مسارها الأصلي إلى كندا بعد أن أعلن لنا قائد الطائرة أنه تلقى أوامر مشددة بالتوجه الفوري إلى كندا، وهناك أُبلغنا بأن هجومًا ما يُشن في تلك اللحظات على أقوى دول العالم، وبأن مركز التجارة العالمي في نيويورك قد تم اختراقه بواسطة طائرتين مدنيتين وتهاوى المبنيان على من فيهما في دقائق معدودة!!

كان المنظر غريبًا ونحن نشاهده على شاشات التلفزة، ولا أدري لِمَ عجزت أنا والغالبية التي معي أن نصدِّق ما يحدث، فالمشهد كان قريبًا؛ إن لم يكن مماثلاً؛ لتلك الأفلام التي اجتهدت هوليوود في التسابق

على إنتاجها، وكأنما كانت ترسم مشهدًا من المستقبل القريب، بيد أن اليهود الذين أنقذوا العالم في فيلم (يوم الاستقلال) فشلوا في إنقاذ وزارة الدفاع وأكبر مجمع اقتصادي في العالم واكتفوا – كما ردَّدت بعض وسائل الإعلام – بالتغيب في ذلك اليوم بل وسحب كل مصالحهم من المركز الذي تهاوى على رؤوس الأبرياء!!

اتصلتُ بوالديَّ فورًا قبل أن يصابا بالجنون.. لم يصدقا عندما سمعا صوتي وطالباني بالعودة مع أختي فورًا، وكان يجب أن أقسم لهما حتى يصدقا بأني سأرجع على أول رحلة يُسمح لها بالمغادرة بعد أن تعطلت الحركة الجوية تمامًا!

اتصلتُ بأختي أيضًا التي كانت على وشك الانهيار رغم أنها اتصلت بشركة الطيران وأخبروها أن الرحلة توجهت إلى كندا تحسبًا لهجمات جديدة، وطلبت مني نفس الطلب، لكني أخبرتها أن عودتي الآن أو لاحقًا ما عادت تفرق كثيرًا وأني سألتزم البقاء مع المسافرين الذين كانوا معي على متن الطائرة.

مكثنا ثلاثة أيام في كندا حتى أبلغونا بأن بإمكاننا المغادرة والتوجه إلى واشنطن.. ثلاثة أيام كانت كافية لتحديد هوية المجرم وديانته وكل ما من شأنه أن يزج باسم العرب والإسلام في قضية الإرهاب، وعلى هذا الأساس الباطل فُتش العرب في مطار دالاس بطريقة مهينة، وبدا

الأمر وكأنه كان ثأرًا مبيتًا منذ فترة طويلة، بل مشاعر كانت تستجدي منذ زمن مبررًا لإهانة الإسلام والمسلمين!!

إلاّ أن كل هذا الجنون الذي يحدث في العالم لن يغير من نيتي في تسمية طفلي في المستقبل (أسامة).. لطالما أحببت هذا الاسم ولا أنوي استبدال اسم آخر به!.

لكن ما هذا الجنون؟! عليَّ أن أجد أباه أولاً، من يدري قد يكون الأب نفسه يحمل الاسم ذاته، عندها عليَّ أن أبحث عن اسم جديد.. ثم تخيلت الاسم هكذا (أسامة رامي).. لا أدري إن كان يبدو متسقًا ومتناغمًا.. لا يهم..!

يا إلهي.. ماذا أفعل؟! العالم يحترق وأنا أفكر في هذه الترهات..!!

أي حظ عاثر هذا الذي قذف بي في قلب أيام سوداء كهذه.. مسكينة مها كان عليها أن تغير كل مخططاتها وتؤخر موعد الزفاف إلى أجل غير مسمى بعد أن اعتذر كل الضيوف الذين كانوا سيحضرون ليلة الزفاف من ولايات أخرى!.

إلى أين يسير العالم؟! أمريكا تجر الكرة الأرضية بأسرها إلى حرب جديدة والعالم لا يملك حتى سلطة الاعتراض.. ليس العالم العربي فقط بل اتضح أن العالم كله لا يملك إلاّ كلمة (حاضر) أمام هذا الجبروت.. ثم تتساءل أمريكا: من زرع الإرهاب؟!

رغم أن ولاية فرجينيا كانت من أقل الولايات تعرضًا للمسلمين في الشوارع إلا أن الأمور لا تسلم من أحداث هنا وهناك، لذا منعتني أختي من الخروج، وكان الجلوس في البيت يؤجج مشاعر الشوق ويرجعني إلى أولى الأيام التي كنت أدردش فيها مع رامي قبل لقائه..

مرَّت عشرة أيام على أحداث الحادي عشر من سبتمبر ونحن نكاد لا نبارح شاشات العرض المختلفة.. ننتقل من (السي إن إن) إلى (الجزيرة) إلى (أبو ظبي)، نتابع تداعيات هذا الحدث الجلل.. وبدى الموضوع كله وكأنه سيناريو أعد لإقناع العالم والشعب الأمريكي، هذا الشعب الذي أتاحت له الأزمة أخيرًا أن يتنبه لوجود خريطة أخرى غير القارة الأمريكية، بأن الخطر يحدق بهم من كل جانب، وأن مزيدًا من الأبراج ستنهار إن لم نتصدى لهذا الإرهاب الإسلامي! وكما يبدو أن الشعوب المسكينة ابتلعت الطعم جيدًا!.

لكن وبرغم مرارة وهول ما جرى؛ سيبدأ الأمريكي يتساءل من الآن فصاعدًا: لماذا يكرهنا العالم؟! وتحديدًا العالم الإسلامي! والإجابة قد تدفعه لتغيير ما في سياسة بلاده التي خلقت هذا الإرهاب ودعمته في مرحلة ما لتدعي محاربته لاحقًا!.

لم يتغير ذلك المناخ الذي عشته العام الماضي.. فهاهي المظاهرات تخرج للشوارع مرة أخرى احتجاجًا على ممارسات بشعة في حق

المسلمين في الولايات المتحدة.. ممارسات لا تقل إرهابا عمَّا يصف به الأمريكيون أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يجيزون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم، ثم يتساءلون لِمَ العالم يكرههم؟!

اتصلت بي مها لنخرج سويًا في مسيرة احتجاجية على ما تتعرض له المساجد الإسلامية والمسلمون في كل مكان، ما دفع رجال الدين لإصدار فتوى بإجازة خلع الحجاب حتى لا تتعرض المسلمة للأذى في الشارع.. وفي المظاهرة لبسن الحجاب، حتى الأمريكيات واللاتي خرجن لمؤازرة المسلمات وإعلان تضامنهن ضد الممارسات التعسفية والتي وصلت حد القتل وإحراق المساجد في بعض الولايات..!

كنت أهتف.. نعم.. أندد.. نعم.. أحتج.. نعم.. لكن من كان يسمع هتاف قلبي وتنديده بالقدر واحتجاجه على تلك الممارسات القهرية في حقه.. من كان يسمع تلك المظاهرة الشرسة والمسيرة اللا سلمية التي كانت تسير في طرقات الداخل الموجوع والمكسور، تحاول التصدي لقوات مكافحة الشغب التي تريد تطويق العشق بداخلنا وتفريق مشاعرنا، قوات المنطق التي لا تؤمن برسالتنا، وتريد منا التنازل عن جزء كبير من حقنا في السعادة، والتفاوض على الجزء الباقي منه!!.. لكن هل كان لتلك المظاهرة أن تنتهي وترضخ لحكم القدر ومنطق قوات مكافحة الشغب العشقي؟! مستحيل فالمقاومة لا

تموت حتى لو اجتمع على قتلها كل العالم، وأنا لي الحق في أن أحب وأن أكتفي من السعادة قدرًا أنا أرتضيه لنفسي لا بتحديد من أحد، حتى وإن كان هذا يعني موتي أو حرقي أو دفني حية..

لكن لمن كنت أبعث برسالة الاحتجاج هذه؟! على أيِّ سورٍ وقف قلبي يندد بتلك الممارسات البشعة في حقه؟! هل حكومة القدر تصغي أم أنها فاقدة لكل الحواس كحكومة الأرض التي نقف أمام أسوارها الآن؟!

بعد تلك المسيرة توجهت إلى أحد المطاعم مع مها وإبراهيم ومعهما كان سعد الابن الروحي للسيد أحمد عزمي وبعض من تلك الوجوه التي لا أذكر أسماءها؛ لكني أتذكر جيدًا الموت الذي كان مرسومًا بدقة على ملامحها في ليلة كانت باردة وعصيبة!!

كانت هذه أول مرة أشعر فيها بالسعادة منذ وقت طويل مضى.. كان الجميع يتندرون على الحظ الرديء لمها وإبراهيم، وبأن هذا تنبيه سماوي بضرورة إعادة النظر في مسألة زواجهما... لكن من يقدر على سلاطة لسان مها..

أوصلتني مها وإبراهيم إلى البيت، وقبل أن أترجل عن السيارة اتفقت معها أن نخرج غدًا إلى السوق لشراء ما ينقصها..

لا أدري لماذا شعرت بحاجتي للنوم في حضن أختي التي كانت تشاهد التلفاز وهي ممددة على سريرها عندما وضعت رأسي على حجرها ونمت كالطفلة..

في اليوم التالي لم يكن سهلاً إقناع أختي بضرورة خروجي مع مها، فبعد كل تلك الاعتداءات السافرة بحق المسلمين كانت تخاف أن يلحق بي أذى، لكني أقنعتها بضرورة الخروج خاصة أن مها وإبراهيم قررا عدم تأجيل العرس لأكثر من أسبوع آخر..

لطالما كرهتُ الخروج مع مها إلى السوق، إنها فعلاً لا تطاق.. ترفض قياس أي شيء وتوافق على أي شيء وتتأفف طوال الوقت وتلعن اليوم الذي خرجت فيه إلى السوق واليوم الذي قررت فيه الزواج.. كدتُ أصاب بالجنون من تذمرها المستمر بلا توقف لقد قست أنا كل ما كان يجب أن تقيسه هي، واشتريت كل ما كان ينقصها من وجهة نظري ولم أعد أسألها رأيها بعد أن يئست من إجابتها المتكررة: لا أدري.. لا أعرف.. لست متأكدة..

كان علينا بعد أن درنا لأكثر من خمس ساعات أن نستريح قليلاً ونأكل شيئًا قبل أن يغمى علينا، وهناك بدأ الحديث الذي كنتُ متأكدة أننا لا بد وأن نتطرق إليه..

قالت بهدوء وهي تتفحص ملامحي: هل تواصلتِ معه منذ وصولك؟

ارتبكت بغباء وكأنني أتحدث مع غريبة عني وعن الموضوع..

– بالطبع لا..

زمت شفتيها وكأنما تفكر في رد مناسب: ولِمَ لا تفعلين؟!

– وما الفائدة؟! موضوعنا انتهى..

ابتسمت نصف ابتسامة وهي تقول:

– متأكدة؟..

كادت دموعي تنهمر.. بلعت ريقي بصعوبة.. قلت:

– دعينا من رامي الآن ...

قاطعتني بهدوء:

– بل رامي سيكون محور حديثنا اليوم.. عليَّ أن أخبرك بشيء..

تظاهرتُ باللامبالاة.. كنتُ مفضوحة بطريقة تثير الشفقة... قالت:

– رامي سيكون موجودًا في حفلة زفافي..

شهقت.. صعقت..

– ماذا تقولين؟!

– هل تذكرين عندما حدثتك في الهاتف عن ذلك اليوم الذي لقيت فيه رامي في السوق، لقد كذبتُ عليكِ عندما قلت لك إني لم أتحدث إليه، خفتُ أن أحكي لك حقيقة ما حصل فتعدلين عن المجيء..

توقفتْ عن الكلام برهة وهي تتفحص ملامحي المحتقنة..

obeikandl.com

– فجأة وجدتُ إبراهيم يناديه باسمه ويسلم عليه هو وابنه... بالطبع لم أستطع أن أخفي الصدمة التي ظهرت بوضوح على وجهي، وكذلك رامي تلعثم عندما رآني، كان موقفًا لا نحسد عليه.. وبعد أن دردش إبراهيم معه وأخبره بأني خطيبته؛ دعاه لحفل الزفاف، وقد أُرسلت له بطاقة دعوة فعلاً.. المهم وبمجرد أن اختفى رامي مع ابنه كان إبراهيم ينتظر مني تفسيرًا لذلك الارتباك الذي حدث، والحقيقة يا يارا؛ وأرجو ألاّ تغضبي مني؛ كان عليَّ أن أشرح لإبراهيم حقيقة الموقف، لكني أؤكد لك أن إبراهيم وأنا واحد وقد أقسم لي ألاَّ يعلم بهذا الموضوع أحد، بل إنه عرض عليَّ أن يحدث رامي في الموضوع، لكني رفضت بالطبع..

توقفت قليلاً وهي تنظر إليَّ ثم استطردت:

– لقد تحدث حديثًا جميلاً عن رامي وشخصيته وكيف تحول بعد زواجه وانطوى على نفسه وابتعد عن كل أصدقائه في الجامعة، قال إنهما كانا صديقين حميمين لكن رامي أجبر الجميع على القبول بطريقته الجديدة في الحياة..!

كلامها كان يعني شيئًا واحدًا...

بأني سأرى من جديد وجه رامي.. عيون رامي.. ابتسامة رامي.. ستنام عيناي على ملامحه مرة أخرى وسأستمع لرائه التي تفتنني..

سيحتويني في عينيه الدافئتين ويغمضهما ليبقيني هناك.. وأنا لن أغادر.. سأقاوم هذه المرة.. سأبكي.. سأرجوه أن يأخذني معه.. أن يجد حلاً للاحتفاظ بي.. سأ...

هراء..

كلامها لا يعني أكثر من أن علي معاودة الموت مجددًا!!.

obeikandl.com

(١١)

رائحة شهر أكتوبر زادت من حدة الذكريات والقلق، وذكَّرتني بالشتاء، ذلك الشتاء الذي قال عنه (الرجل المجروح) يومًا بأنه يحس فيه وكأنما يتدفق عاطفة ودفئًا حتى في تلك الشتاءات التي مرَّت بلا حب..!

ترى كيف سيمر عليه هذا الشتاء..؟!

كان القلق لا يفارقني لحظة ولا أدري ما أنا فاعلة إن رأيت رامي حقًا في حفل الزفاف..!!

أي موقف لا أُحسد عليه هذا؟! لكن عليَّ أن أعترف بيني وبين نفسي على الأقل أن فرحة ما بداخلي تقاوم ألاَّ تصرخ على الملأ..!

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً عندما قررت أن أتصفح بريدي الإلكتروني قبل أن تمر عليَّ مها التي كانت تعاني حالة قلق ولا تشعر بالرغبة في التحدث إلى إبراهيم الذي اتصل بي عشرين مرة يرجوني فيها أن أقنعها بالحديث إليه.. وأضاف: أخبريها أن مشاعر القلق هذه طبيعية وتنتاب أي عروس قبل ليلة زفافها..

و.. و.. و..

مسكين.. يكاد يجن فعلاً.. وعدته أن أتحدث إليها ثم أقفلت الخط.

اتسعت عيناي دهشة...

رسالة من طارق في بريدي..

أخيرًا أيها الكاذب تجرأت على الحديث ..

فتحتها.. ترى ماذا تحمل من أخبار؟!...

– أين أنتِ؟!.. أريد أن أتحدث إليكِ.. أرجوك اتصلي بي على هذا الرقم..

ترى ماذا يريد مني؟! وهل سأجرؤ على الاتصال به؟! ولماذا هذا التوقيت غير المناسب لطلبه؟!...

حفل الزفاف غدًا، ولا وقت عندي للتفكير في طارق الآن.. كان عليه أن يختار وقتًا أنسب من هذا.. ثم ما هو هذا الموضوع الذي يريد أن يحدثني به؟!

عليَّ أن أنسى طارق حتى ينتهي حفل الزفاف وأفكِّر في غد، هذا الغد الذي سيحوي رامي... والله وحده يعلم ماذا سيجر عليَّ هذا اللقاء من أحزان!.

وأنت يا طارق لا أظنك تحمل لي أفضل مما يحمل لي رامي.. لذا دعني الآن أركِّز على وجع واحد وبعده سأقرر إن كنت أستطيع تحمل المزيد وقد أتصل بك!!.

obeikandl.com

وحلَّت ليلة الزفاف..

عندما نظرتُ إلى نفسي في المرآة.. أدركتُ أني لم أكن أتجمَّل إلا لرامي.. وأني ربما اعتقدت بالخطأ أن اليوم يوم فرحي أنا..!!

رغم تغيُّب كثير من المدعوين إلا أن العُرس كان مزدحمًا والجميع كان يرقص ويغني، كانت مها تبدو أكثر هدوءًا من الليلة السابقة وكان هدوءها هذا يزعجني جدًا، فقد بدت غريبة وهي تتصرف هكذا.. لقد طلبت مني أن أبقى معها حتى تنتهي (الكوافير) من وضع اللمسات الأخيرة، ولم تكن منبهرة بنفسها كما كنت أنا منبهرة بها.. لقد بدت رائعة في هذا الفستان الرائع المطرز بورد زهري خفيف على صدره وذيله، لم أصدق أن مها ستبدو أنثى بهذا الكمال.. بدت في منتهى الرقة والنعومة، ورغم كلمات الإطراء التي أغدقتها عليها بسخاء وصدق إلا أنها كانت تبدو شاردة الذهن.. تبتسم وكأنها في عالم آخر!..

وكان الاتفاق أن يأتي أبوها ليأخذها إلى صالة الفندق... لكن بدلاً من والدها رأيت إبراهيم يصف سيارته ويسرع داخلاً إلينا.. وقف كالأبله تمامًا.. ينظر إليها وعيناه مفتوحتان دهشة وفرحًا!!..
كانت تنظر إليه بعينين تحويان تساؤلات كثيرة..

البارحة عندما كنت معها بكت كثيرًا.. كانت تلك المرة الثانية التي

أرى فيها مها تبكي بعد ذلك اليوم عندما فقد إبراهيم وعيه مع البقية ونقلناهم إلى المستشفى..!!

لقد كانت البارحة في حالة يرثى لها من القلق والخوف...

– أخاف أن يتغير هذا الحب كله بعد أن نتزوج.. أخاف أن أنجب طفلاً مشوهًا.. أخاف ألاَّ يعجبه جسمي.. لقد أخفيت عنه أن بعضًا من خصلات شعري قد أصابها الشيب.. يا إلهي لا مجال لإخفائها الآن يا يارا.. أشياء كثيرة قد تفاجئه وتفاجئني.. لم أكن أعرف أن الزواج مرعب، ولا أدري كيف سأتكيَّف مع هذه الحياة الجديدة..!!

قد تبدو مخاوف مها للوهلة الأولى مضحكة أو سخيفة، لكنها تساؤلات تثير مخاوف كثير من البنات قبل الزواج وتظل هاجسًا يؤرق مضاجعهن حتى تنتهي الأيام الأولى وتمر بسلام.. غالبًا!..

إبراهيم كان يدرك مخاوف مها جيدًا، وكان على يقين أنها ستزول بمجرد انتهاء هذه الليلة..!

اقترب منها بهدوء.. قبَّل يديها.. جبينها.. كانت أصابعها ترتعش وعيناها ممتلئتان بالدموع..

قال لها بصوت رقيق: مها.. أين كنتِ تخفين كل هذا الجمال.. أقسم أنكِ أجمل امرأة وقعت عيناي عليها طوال حياتي..

كان على وشك أن يُقبِّلها عندما تنحنحتُ قائلة: هل يمكن إرجاء

هذا الفصل لما بعد الحفل.. حتى لا نضيع عمل أكثر من أربع ساعات.
نظر إبراهيم نحوي بلوم كبير قائلاً: هذه ليلتنا نحن..
قلت وأنا أبتسم من قلبي: أتفهَّم هذا جيدًا، لكن ليس من المعقول أن تظهر عروسك بلا أحمر شفاه..

وفجأة همستُ لي مها أن أتركها مع إبراهيم قليلاً.. قلت لها: أعطني مفاتيح سيارتك وأنا سأسبقكما إلى الفندق لكن لا تتأخري أرجوكِ ولا تبكي فلا وقت لدينا لنعيد كل هذا من جديد!.
وانصرفت...

وعندما كنتُ أدير السيارة؛ رأيتُ مها من خلف الزجاج.. كانت تحتضن إبراهيم وتبكي!!..

ترى ما سر هذه المشاعر المتناقضة التي تصيب الفتيات في أغلب الأحيان؟! لِمَ كل هذا الفرح والخوف في آنٍ واحد؟!

عندما كنت أصف السيارة خارج الفندق.. بدأ قلبي يخفق بشدة.. وبدأت يداي ترتجفان دون وعي..
ترى هل حضر رامي؟!
بحثت عيناي عنه بشغف.. لكني لم أجده!!..

كاد والدا مها أن يُجنَّا عندما دخلت القاعة وابنتهما ليست معي واضطررت أن أحكي ما كان.. وقبل أن يهرع الأب خارجًا؛ كان

إبراهيم يلوِّحُ من خارج القاعة بأنهما قد وصلا... أسرعنا جميعًا إلى الخارج وبدأت الزفة أخيرًا...

كانت مها تبدو فعلاً في منتهى الرقة والجمال.. والسعادة!!...

ترى ماذا يدور بين العشاق في أخر اللحظات حتى استطاع إبراهيم أن يرسم هذه الابتسامة على وجه حبيبته ؟!.. ما هي الكلمات السحرية التي أشاعت كل هذا الرضا والسعادة على ملامح مها التي كادت تموت خوفًا وقلقًا قبل لحظات قليلة ؟! أيُّ سحرٌ فيك يا حب يحيل معتقداتنا من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ؟! أي عبث تمارسه علينا ونحن راضون هكذا بلا أدنى حدود للمقاومة المشروعة ؟!!

جلس العروسان في الكوشة وسط الزغاريد وهتاف الأصدقاء.. شعرتُ بسعادة غامرة وأنا أرى تلك الفرحة على وجه صديقتي.. ما أجمل أن يُتوَّج الحب بليلة كهذه...

لكن أين رامي ؟!

بدأ اليأس يدب في قلبي.. الظاهر أنه لن يأتي.. لكني أشعر به.. أحس بوجوده في هذه اللحظة.. لا أراه؛ لكنه في زاوية ما في هذه القاعة يراقبني.. خفتُ أن ألتفت، خفتُ أن أتحرك من مكاني.. عيناه تخترقان جلدي.. تحرقاني.. تطوفانني بلا رحمة.. أقسم أنه موجود..

وفجأة سمعت صوتًا يهمس من خلفي قائلاً:

– ما وحشتك يا حبيبي بعد هالغيبة الطويلة...و الا شايف ها الليالي اللي بعدناها قليلة..[١٠]

انتفضتُ من مكاني.. ارتعشت أطرافي.. دقَّ قلبي بعنف.. أمسك بذراعي قبل أن أسقط...

يا رب.. التقت عينانا.. كدت أموت وأنا على وشك الحياة مجددًا..

جذبني من ذراعي بسرعة خارج القاعة..

كنت أمشي على سحاب أو هكذا أحسست!!

توقفنا في إحدى زوايا بهو الفندق.. كنا ننظر إلى بعضنا بشوق كل الأيام التي مضت خالية منا.. ولكن بذات الخوف الذي افترق به قلبانا!!

غاص قلبي بين ضلوعي.. لم أكن أعلم أن الشوق حجمه كان مخيفًا بداخلي هكذا!!..

لم يتغير، عيناه ما زالتا قادرتين على احتضاني بقوة موجعة.. تلك النصف ابتسامة التي لا تفارق طرف فمه عندما ينظر إليَّ.. جسده كما هو يعج بتلك الرجولة التي أخافتني يومًا.. ويداه لا تزالان خشنتين تجرحان جلدي الرقيق بنعومة متناهية...

قال بنبرة مرتعشة: الله كم أفتقدك...

---

(١٠) أغنية للمطرب أصيل أبو بكر سالم بالفقيه.

obeikandl.com

لم أستطع أن أنطق، ترك لساني المهمة ليدين ترتعشان وقلب لا ينبغي له أن يخفق بكل ذلك الانفعال.. ترك المهمة لعيون عجزت عن صدِّ تلك الدموع التي تزاحمت على استحياء لترحب بعودة الحبيب..

ظلَّ ينظر إليَّ ويداه تحيطان بوجهي.. تمسحان شعري ودموعي.. ضم ألمي إلى ألمه.. همس في أذني:

– يارا.. تعالي نهرب من هنا..

يا إلهي.. تلك الراء.. ما أجمل اسمي يوم تنطقه يا رامي.. صوتي كان يرتعش رغمًا عني:

– إلى أين؟!

– إلى أي مكان يجمعنا إلى الأبد..

قلتُ بمرارة:

– وهل من مكان يرضى بجمعنا إلى الأبد..

– نعم يوجد..

– لو كان موجودًا لكنا نسكنه الآن..

– بل هو موجود..

– لم يكن موجودًا قبل سنة..

– ربما.. لكن ما كان غير متاحٍ قبل سنة قد يكون متاحًا اليوم..

– أنت تهذي تحت وطأة الشوق.. ستفيق بعد قليل..

obeikandl.com

– أي شوق تتحدثين عنه.. ما أشعره هو أكبر من هذه الكلمة.. هو شيء لم أحسُّ به في حياتي قط، ثم ما هو هذا الذي سأفيق منه بعد قليل.. منكِ؟!.. كنتُ فعلتها لو استطعت.. كنتُ رأفت بحال قلبي المسكين، لكنكِ كنتِ ذلك الألم الذي يدمن الإنسان عذابه فيرفض حتى التفكير في نسيانه..

ابتعدتُ عنه وقلت فجأة: وابنك؟..

تغيَّر وجهه.. احتقن.. طاف ذلك الحزن الذي طالما رأيته يتمسح ملامحه..

في غمرة الفرح نسيت ابنك يا رامي.. في غمرة الفرح نسيت يوسف وتذكرتني أنا.. يكفيني أني سرقت هذه اللحظة من ذلك الصبي الصغير الذي استولى عليك واستحوذ على تواجدك بقسوة لا يدركها..

قال وهو يضم يدي كما كان يفعل دومًا:

– دعكِ من ابني الآن.. ما أحتاجه الآن هو أنتِ..

جرحني تجاهله لملاحظاتي.. قاطعته:

– الآن! وكم سيطول الآن هذه المرة؟!

صمت قليلاً.. ثم قال:

– لا تسأليني أسئلة لا أعرف إجابتها..

obeikandl.com

صمت مرة أخرى.. تنهد.. كان يتأملني.. يتفحص وجهي.. يفرك يدي بهدوء ورقة.. كان يفكر كأنما يريد أن يتخذ قرارًا عاجلاً.. قال:

– كلا بل إني أعرف إجابتها جيدًا.. دعيني أراكِ غدًا.. سأمرُّ عليكِ الساعة التاسعة ونذهب إلى مكاننا المفضل.. أريد أن أنفرد بكِ بعيدًا عن كل هذه العيون العربية المحدقة بنا الليلة.. لدي الكثير أريد أن أخبركِ به، لن أكرِّر ما فعلته بكِ سابقًا.. لن أخفي شيئًا.. سأترك الخيار لكِ هذه المرة..

أي خيار يتحدث عنه؟!

وقبل أن أنطق بشيء؛ وضع إصبعه على شفتي وهو يهز رأسه قائلاً:

– لا تسألي عن شيء الآن.. غدًا لنا حديث طويل فيه سأفرغ شوقًا يعتصر أحشائي وأبوح بالكثير لصدرك الذي احتواني..

قاطعته :

– غدًا غنِّ لي كثيرًا..

– سأحيل هذا الغد إلى عصر كامل أحياه معكِ.. سأغني فيه وأبكي.. سأضحك.. سآكل.. سأرقص، سأتحايل على هذا الغد أن يطول قليلاً.. أن يبقى.. سأرجوه أن تمتد ليلته بطول عمرينا.. أن يختزل في ساعاته القليلة ما تبقى من زمن الحياة، حتى إن صحونا يكون الزمن قد أكمل دورته فلا يتبقى من ساعاته ما يُحيا دوننا..

ما حدث كان حلمًا.. كان حقيقة.. لا يهم.. سأراه مرة أخرى.. هذا هو المهم!!

وجاء الغد بأسرع مما توقعت..

لقد أخبرتُ أختي بما كان البارحة، وقلتُ لها أيضًا إني أنوي مقابلة رامي الليلة لأن هناك ما يجب أن أسمعه منه والظاهر أن هذه الليلة ستكون كثيرة الشبه بتلك الليلة الأخيرة.. ذات شتاءٍ سابق!!.

الغريب في الأمر بأني لم أشعر برغبة في التأنق.. شعرتُ فجأة أن كل ملابسي تبدو قبيحة الشكل، كلما ارتديت شيئًا خلعته.. وأخيرًا اتجهت إلى خزانة أختي؛ ورغم أن ذوقها مختلف عني؛ إلا أني وجدت نفسي أجرِّب ثيابها، لكن وعندما وقفت أمام المرآة رأيت شكلاً يوحي بمحامية خارجة لتوها من مرافعة فاشلة.. أوف.. أخيرًا ارتديت بنطلونا مصنوعًا على شكل جلد نمر وجاكيتًا شتويًا أسود مصنوعًا من جلد الشامواه.. عندما ألقيت على نفسي النظرة الأخيرة في المرآة وجدتني بلا شعور أخرج لساني لنفسي وأنا أقول: بشعة..

كانت أختي تمر بجانب غرفتي عندما سمعتني فضحكت قائلة:

– لا فائدة، فمهما ارتديتِ اليوم سترينه بشعًا، ما تلبسينه الآن هو أفضل ما ارتديتِ منذ ثلاث ساعات من التجريب والتخريب، رغم أنه يبدو وحشيًا ولن يساعد على حديث هادئ ورومانسي.

– لا أظن الليلة ستحمل رومانسية من أي نوع، بل إنها المعركة الأخيرة.. وهذه الثياب تناسب هذا الجو تمامًا.

ضحكت مرة أخرى وهي تدخل غرفتها قائلة:

– هكذا العشاق يطلقون على كل معركة المعركة الأخيرة.. سنرى.

قلتُ لها بصوت مرتفع حتى تسمعني:

– لكن في النهاية لا بد من معركة أخيرة..

لم تعلق أختي هذه المرة..

ورغم أنها لم تكن أمامي في تلك اللحظة، إلا أني شعرت بصمتها الحزين والذي تعلمت عبر سنوات طويلة أن تداريه ببراعة.. مسكينة أختي.. لا بد أنها تذكرت معركتها الأخيرة بعد ليلة اكتشفت فيها بأن زوجها، حبيب الطفولة والمراهقة والصبا، لم يكن يذهب في عمل خارج المدينة – كما كان يدعي – بل كان له بيتٌ آخر وطفلان.. كان عمري خمسة عشر عامًا حينذاك، وكانت هي في السابعة والعشرين من عمرها.. عشر سنوات مرَّت كأن ما حدث كان البارحة فقط.. والآن وبعد أن أنهت كل دراساتها العليا التي دفنت فيها أحلى سنين عمرها هربًا من صدمة العمر وأصبحت تدرس في واحدة من أهم الجامعات الأمريكية، لا يزال شبح الماضي يطاردها وينجح في قلب مزاجها وأحزانها !..

وقبل أن أخرج أثنت على مظهري ونصحتني أن تكون هذه المقابلة حاسمة فيما يخص مستقبلي مع رامي..
قبَّلتها وأنا أعدها أن أتصرف بحكمة !!.

وبينما أنا أقف أجول بنظري بين السيارات، أبحث عن رامي، أشار لي أحدهم بنور السيارة الأمامي.. كان هو.. لقد غيَّر سيارته ولم أصدق عيني وأنا أتفحص نوع السيارة !.

قلت له وأنا أضع حزام الأمان:

– اشتريتَ سيارة جديدة إذن.. إنها نوع سياراتي المفضلة..

قاطعني وعلى شفتيه ابتسامة شقية:

– اشتريتها بعد أن غادرتِ.. أتذكرين ذلك اليوم عندما كانت الإشارة حمراء ووقفت سيارة إلى جانبنا وظللت تنظرين إليها وكدت أجن لأني اعتقدت أنكِ كنتِ تنظرين لذلك الشاب الوسيم الذي كان يقودها ؟..

قاطعته وأنا أضحك:

– لم يكن بتلك الوسامة..

صاح رامي مقاطعًا:

– هذا يعني أنكِ تنظرين إليه حقًا.

ضحكتُ من أعماقي وأنا أقول:

obeikandl.com

– بل إلى السيارة، وقلتُ لك حينها إن هذا هو نوع السيارات المفضل لدي..

حاولت تغيير الموضوع عندما سألته:

– أرى أنك تخلصت من التقويم الذي كنت تضعه على أسنانك !..

لوى شفتيه بامتعاض وهو يرمقني بنظرة غاضبة ويسرع بالسيارة...

عندما دخلنا ذلك المطعم الذي اعتدنا ارتياده في السابق؛ لاحظت أنهم قد جدَّدوا المكان، واختاروا أثاثًا ينتمي إلى العصور الغابرة؛ وكأنما انتقلنا إلى قصر من القصور التي قرأنا عنها في كتب التاريخ..

لاحظ رامي إعجابي بالتجديد.. قال مبتسمًا:

– كنتُ أعرف أن هذا التغيير سيعجبك.. تعالي نجلس على ذلك المقعد..

– لا يبدو مريحًا.. أوه..

اختلف الوضع تمامًا عندما جلست.. لم يكن ذلك التجديد أكثر من شكل خارجي، لكني عندما جلست شعرت وكأني غصت في سرير عصري مريح.. لم يكن المقعد واسعًا، لذا شعرت برامي قريبًا جدًا مني.. أصابني التوتر.. شعر بتوتري.. قال:

– تريدين تغيير المكان..

أطرقتْ بعيني واحمَّر وجهي.. كم هو سهلٌ عليه قراءتي !.

قلتُ وأنا أُغيرِّ دفة الحديث تمامًا:

– كنتَ تأتي إلى هنا في غيابي..

أخذ يدي بين راحتيه؛ كما اعتاد أن يفعل دومًا:

– لا.. مرة أو مرتين فقط عندما اشتد شوقي إليكِ.. كنت أشعر وكأني سألقاكِ هنا..

علقت بخبث واضح:

– كلامك يعني أنك لم تشتق لي إلا مرتين فقط..

وقبل أن يعلق جاء النادل لأخذ الطلب.. وكانت صدمة لي عندما سمعت رامي يقول له:

– اثنين café latte من فضلك...

وعندما سألني إن كنتُ أريد شيئًا آخر إلى جانب القهوة؛ انتبه لدهشتي فضحك قائلاً:

– لا تستغربي.. مثلك يغير قوانين الكوكب بأكمله...

– لكن طالما حاولت إقناعي بالإقلاع عن شرب القهوة .. ماذا حدث لك؟!

– شوقي لكِ كان السبب.. رائحتها تذكرني بك وعندما أشربها أشعر وكأني أحتسي ذكرياتنا معًا.. شعور مؤلم.. لكنه لذيذ..

سكتَ.. ثم استطرد قائلاً:

obeikandl.com

– على كل حال لا تقلقي فأنا لا أُكثر من شرب القهوة، قد تمضي أسابيع دون أن أحتسي فنجانًا واحدًا..

قلتُ دون وعي:

– أحببتني حقًا يا رامي؟!!..

لم يعلق.. بل ظل ينظر إلي.. يتفحص وجهي..

كُفّ عن تعذيبي يا رامي.. هربت عيناي بعيدًا، لا قدرة لي على تحمل هذه النظرات.. ضغط على يدي كأنه يدعوني أن أكف عن الهرب وأشاركه حديثه الصامت.. نظرت إليه..

قلت:

– وعدتني أن تغني لي اليوم..

ابتسم ثم ضحك ضحكة قصيرة قائلاً:

– نعم من الأفضل أن أغني لك الآن لأننا سنتحدث في أمور كثيرة ومهمة ولا أظنك بعدها سترغبين في سماعي أغني..

شعرتُ بقلق من حديثه كنت أعلم أنه بصدد إخباري بشيء ما لكن لِمَ يفترض أني لن أطيقه بعدها؟!

– يارا.. حبيبتي ما بالك سرحت بعينيك هكذا؟!

اغتصبت ابتسامة من قلب القلق وأنا أقول:

– سأغمض عيني وأسمعك.. هيا..

obeikandl.com

كنتُ أهرب...

أسندتُ رأسي إلى المقعد وأغمضتُ عيني.. شعرتُ به يقترب مني كثيرًا.. تظاهرتُ بالهدوء؛ إلا أن قلبي كان يدق بسرعة مذهلة..

قال وأنا أشعر بصوته قريبًا من أذني:

– سأغني لك أغنية اعتدت أن أغنيها ليوسف كثيرًا.. حتى هو يحبها ويطلب مني غناءها له حتى يردد بعدي كلمة آمين...

"الله لا يحرمني من حبك حبيبي.. قول آمين.. والله يا هالدنيا ما تسوى بدونك شوفتك تبدد أحزان الحزين.. قول آمين.."[١١]

وجدت نفسي أقول بدون تركيز:

– آمين...

فتحت عيني لأجد عينيه الخضراوين تطالعانني بحب.. بشغف.. رموشه تكاد تلمسني.. تحفر على ملامحي شوقًا بكثافتها...

قلت بتوسل:

– لِمَ أنت بخيل هكذا؟! أرجوك أكمل...

وكأنه لم يسمعني.. كان يسبح في عالم آخر.. حاولت أن أعتدل في جلستي فمنعتني يده ونظرة عينيه..

– هل أنتِ حقًا أمامي الآن يا يارا؟!

---

(١١) أغنية للمطرب السعودي حسن عبد الله..

هربت عيناي.. لا حيلة لي أمام كل هذا السحر والشوق..

اقترب أكثر.. تسارعت دقات قلبي.. همس في أذني:

– أسمع قلبكِ يدق.. هل تخافين اقترابي منك لهذه الدرجة؟..

قلت بصوت يحاول التماسك:

– رامي..

قاطعني قائلاً:

– حبيبة رامي.. عيون رامي.. آه كم اشتقت إليك يا يارا.. آه كم بدت الحياة بعدك لا تطاق..

همست مرة أخرى وأنا أحاول انتزاع نفسي بهدوء من حضنه:

– رامي..

مرة أخرى يقاطعني:

– أحبك..

ابتعد عني بهدوء.. قال وفي عينيه نظرة لوم صادقة:

– علَّمك الفراق أن تخافي مني.. قلبك يدق وتدفعينني بعيدًا عنك.. ماذا دهاك يا يارا؟!

تنهدتُ وأنا أتفحَّص نظرة اللوم هذه.. ابتسمت له وأنا أمسح على شعره بحنان... قلت:

– قلبي اعتاد على فكرة غيابك ولم يُحضِّر نفسه للقاء جديد لذا تراه

obeikandl.com

مرتبكًا يدق بسرعة..

أمسك يدي التي مسحت على شعره.. قبَّلها وظل يمررها على وجهه.. يستنشقها.. كان مغمض العينين؛ ولكني لمحت تلك الدموع التي تعلقت برموشه الكثيفة..

كان خائفًا وفي احتضانه ليدي توسل ما.. كأنما يطلب مني ألاّ أغادره!!

لا أدري بأي جرأة وشجاعة اقتربت منه أنا هذه المرة.. قبَّلتُ عينيه.. تحسست بشفتي رموشه.. دقَّ قلبه هو هذه المرة.. انتفض جسده..

همست في أذنهُ:

– أحبك...كثيرًا..

فجأة شعرت بشفتيه تقتربان من شفتي.. انتفض جسدي.. ابتعدت بسرعة.. ما هذا الجنون الذي نفعله.. نظر إليَّ بعتاب ثم قال بصوت بدا عليه فروغ صبر وتوسل في ذات الوقت:

– لا تهربي.. لقد قلتُ لكِ يومًا إنني سأقبِّلكِ شئتِ هذا أم أبيتِ...

– وأنا قلت لك إنك لن تفعل..

أمسك ذراعي وهو يجذبني نحوه:

– لن أطيعكِ هذه المرة ولن أخاف منك..

دفعته بعيدًا وأنا أقول بدلال مقصود أعلم أنه سيثيره أكثر:

– لا.. سأغضب منك.. أنا جادة..

تنهد.. تركني.. قال بخشونة:

– إذن دعيني أنتقل إلى الموضوع الرئيسي الذي من أجله اجتمعنا..

لم أتوقع ردة فعله هذه.. حسبته سيتوسل إليَّ أكثر..

شعرت بغيظ كبير منه فقلت بنفس النبرة الخشنة:

– تفضل..

انقضَّ عليَّ كالمجنون..

لم يقبل شفتي فقط.. بل قبَّل كل وجهي.. شعري وعيني وأنفي.. ثم توقف فجأة كما بدأ فجأة.. قال بصوت متقطع:

– لا تتعمدي إثارتي مرة أخرى.. فأنا أعاني بما فيه الكفاية..

مرَّت لحظات صمت قبل أن يقول:

– آسف..

لم أجد ما أقوله..

اعتدل في جلسته.. قال بلهجة آمرة بعض الشيء:

– انظري إليَّ..

نظرتُ إليه..

– لِمَ نظرتك تحمل كل هذا اللوم..؟

obeikandl.com

لم أُجِب.. لم أكن أريده أن يقبِّلني بتلك الصورة.. كنت أتخيلها أكثر شاعرية.. شعرتُ بحنق كبير من نفسي ومنه..

زفر بضيق وأخذ يدي بين راحتيه قائلاً:

– آسف، أقسم أني لم أقصد أن أكون فظًا. لقد فقدت أعصابي يا يارا وعليكِ أن تغفري لي فأنا قد تماسكت كثيرًا لكني اليوم لم أقدر..

سكتَ.. ثم تابع بهدوء أكثر:

– أتعلمين إذا وافقتِ على اقتراحي الذي سأقوله لكِ الآن فهذا يعني أني أستطيع تقبيلك حتى الصباح بلا توقف وبلا إحساس بالذنب!

توقف مرة أخرى.. يدقق في تفاصيلي.. ينتظر مني تشجيعًا ولو بنظرة ليتابع اقتراحه.. لكني كنت في حالة يرثى لها من الداخل.. ما يريد قوله يبدو عظيمًا!!..

استنشق الهواء بعمق كأنما يستجمع شجاعته.. قال:

– هل تقبلين الزواج بي؟!

– ماذا؟!

تصلبت شراييني.. كان هذا آخر ما توقعت سماعه.. شعرت بكل شيء يدور من حولي.. إنه أجمل عرض تلقيته طوال حياتي.. إنه العرض التي تنتظره الفتاة بمنتهى الكبرياء وفارغ الصبر.. أطرقت برأسي.. كنت أريد أن أصرخ (بنعم) لكن هذا ليس كل شيء، ثمة

شيء آخر ينوي إخباري به أيضًا.. عليَّ أن أتريث في إجابتي قليلاً.. لا.. بل قولي نعم، ليست نتائج التريث دائمًا سليمة..

قال :

– أرجوك أجيبي على سؤالي.. هل ترضين بالزواج مني؟!

قلت :

– وابنك؟..

شعرت بنفاد صبره.. قال بحدة:

– لا تردي على سؤالي بسؤال.. يارا هل تقبلين الزواج بي؟!

تنهدت.. قلت :

– أنت تعرف الإجابة فلِمَ تسأل؟!

ضمَّ يدي إلى صدره:

– أريد أن أسمعها منك.. أحتاج أن أسمعها.. أرجوك..

ابتلعتُ ريقي بصعوبة.. نبضات قلبي تتسارع.. ترى ما هو هذا الذي سأعرفه بعد أن أقول نعم!؟

– نعم.. أريد الزواج بك..

اختنقت أنا بالدموع..

تنهد هو بارتياح..

obeikandl.com

قال:

– أتمنى أن تسمعيني بتعقل.. وأن تفهمي ما سأخبرك به..

شعرت بخوف يحتلني.. ليتك لا تخبرني بشيء يا رامي.. ليتنا نعيش هذا الحلم ولو ليوم واحد!!.

ملامحه تخشبت.. قال وفي عينيه نظرة مترقبة:

– لقد أرجعت أم يوسف..

استدرك بسرعة وقلبه يخفق:

– زوجة على الورق لا أكثر..

حاولت أن أستوعب ما قاله للتو.. لم أستطع..

أمسك يدي وكأنما خاف أن أهرب.. تابع بسرعة:

– أرجوكِ يا يارا أن تفهمي ما أقوله الآن.. هذه المخلوقة لا شيء بيني وبينها سوى يوسف.. بعد أن غادرتِ بأربعة أشهر تقريبًا جاءوا بها إلى هنا لترى ابنها علَّها تشفى من الحالة النفسية المتردية التي أخبرتك سابقًا أنها كانت تمر بها.. بعد أن رأت يوسف أصيبت بحالة هستيرية ولازمت المستشفى وكنت أذهب مع يوسف يوميًا لرؤيتها.. شعرت بأن الولد ارتاح لها مع مرور الوقت، وعندما عرف أنها أمه شعرت أنه تعرض لأزمة نفسية وحيرةٍ كبيرة على طفل في عمره وظل يسألني أسئلة كثيرة لم أدرِ كيف أجيبه عنها.. وأنت تعلمين كم أنا

obeikandl.com

ضعيف تجاه هذا الولد، حاجته لأمه كانت تلح عليه يومًا بعد يوم ثم لاحظت بأنه بدأ يتجنب الحديث معي.. ثم كان ما جعلني مستعدًا لأن أضحي بكل شيء في سبيل أن يستعيد ابني حيويته وابتسامته، لقد تردَّت حالته الصحية فجأة وعندما عرضته على الطبيب قال إن الولد يعيش حالة من الضغط النفسي الكبير، وعندما شرحت له ما حدث نصحني أن أترك الولد على راحته تمامًا حتى يقرر هو إن كان سيقبل بوجودها أم لا وحذرني ألاَّ أمنعه أو أحاول ثنيه عمَّا يشعر به سواءً أكان رفضًا لوجود هذه المرأة أم لصالح بقائها !.

لقد كان أخوها معها، وفي جلسة ودية اقترح علي أن أُرجع أخته فهي لا تريد من الدنيا أكثر من البقاء إلى جوار ابنها.. وعندما أخبرته أني مرتبط عاطفيًا بواحدة أخرى وأفكر في الزواج بها، أقسم لي أن هذا لن يؤثر على شيء ولن يقف في طريقي أحد هذه المرة وأني حُرٌّ في أن أحيا كيفما شئت..

طلبتُ أن يحضر والدي ووالدها حتى يكون الكلام رسميًا والوعود كلها مكتوبة على ورق رسمي بحضور المحاميين...

وهكذا أسقطنا كل الدعاوى التي في المحكمة ووثَّقت كل شروطي في ورق.. وهي الآن مسالمة لا تطالبني بأكثر مما أعطي لها، ويبدو أن قربها من ابنها قد حسَّن حالتها كثيرًا، حتى أنها بعد ثلاثة أشهر طلبت مني العودة لزيارة أهلها ثم عادت مجددًا.. يارا لقد شعرت أني قد

رفعت ظلمًا كبيرًا عنها عندما فعلت ما فعلت، ويوسف يبدو سعيدًا بأمه ولو أني شعرت للحظة واحدة أنه لا يحبها ويرفض وجودها لما أقدمت على ما أقدمت عليه.. لقد فعلتُ كل هذا لأجله على الأقل لا مزيد من المحاكم والدعاوى والخوف من أن أفقد ابني، حياتي الآن تبدو أكثر استقرارًا وهدوءًا حتى أدائي في عملي تحسَّن بشكل ملحوظ..

يارا هذه المرة فرضتُ عليهم شروطي ولم أتنازل عن شيء..

لقد كنتُ في طريقي إليكِ لولا أني عرفت من مها بأنك ستأتين لحضور زفافها..

توقف عن الكلام..

دائمًا لديه ما يقول.. دائمًا لديه مبرر.. دائمًا كلامه مقنع وأسبابه منطقية.. هو الآن يريدني أن أقبل بوجود امرأة أخرى؛ امرأة على ورق.. وأنا سأكون الحقيقة، الزوجة التي يحبها ويريدها ويتمنى قربها.. ترى كيف ستكون الحياة؟! سأعيش في شقة أخرى معه وهو الذي لا يطيق بُعد يوسف عنه؟!

لابد أنها ستراني وسأراها ولو لمرة واحدة، هل ستسكت فعلاً وتقبل بالأمر الواقع وتتركني لرامي دون أدنى محاولة لاسترجاعه؟! وأنا هل أقبل وضعًا غريبًا كهذا؟.. كيف وأنا الآن فقط أشعر بالغيرة تمزقني

قِطعًا ؟! كيف سأقنع أنه يذهب ليرى ابنه فقط وأنها لا تثير اهتمامه أبدًا ؟! ترى هل ينوي أن ينام ليلة عندي وليلة عندها حتى يبقى مع ابنه ؟! وعندما ينام عند يوسف ترى كيف تحدثه، كيف تتدلل ؟! ماذا تلبس ؟! ألن تأتي لحظة الغواية وبعدها يعتذر لي بأنه فعل هذا من أجلها وليس رغبة فيها ؟!! وما موقفي لو عرفت يومًا أنها حامل مثلاً ؟ والأهم من هذا كله؛ والدي ووالدتي، أي قوة في الأرض ستقنعهما بزواجي من شخص متزوج وعنده طفل، من أين لهما أن يقتنعا بقصة رامي وأنه لا ذنب له في كل ما حصل سابقًا أو لاحقًا ؟.. أما كان يكفي المشكلة الأولى بأن جنسيته مختلفة عني والتي حتمًا كانت ستجلب لي مشاكل لا حصر لها مع العائلة ؟!

فجأة قطع أفكاري قائلاً بصوت مشحون دفئًا وعاطفة مشوبٍ بخوف من ردة فعلي الصامتة :

– مخطئة ، كل ما تفكرين فيه الآن غير صحيح ، أقسم أني أكاد أسمع وجعك وأنين قلبك وأدرك ما تفكرين فيه جيدًا ، بل إني سمعت كل حرف دار في ذهنك..

كان صوتي مخنوقًا والحروف أشعر بها تنتحر ببطء على شفتي حتى دموعي تحجَّرت.. شعرت بنفسي وكأني مادة غير بشرية لا تحس ولا تدرك ولا تعي..

قلت بصوت لا يكاد يُسمع:

– أريد أن أذهب..

وفجأة..

آآه... شعرتُ بألمٍ حاد!..

يا قلبي المسكين ماذا أفعل بك؟! ما كان عليك أن تمر بكل هذا الحب، كيف أعتذر لك؟.. أنت الذي تقاوم ألاّ تموت من أجلي وأنا أمارس عليك كل هذا القهر والظلم ثم أطالبك بالبقاء؟! كان عليَّ أن أدرك بأنك لست كبقية القلوب، وأن الحب هو العملية الأخطر التي لا أمل أن تعيش بعدها.. لقد وعدتني أن تطيب وتواصل الخفقان شرط أن أهتم بك، لا أن أقذفك في قلب الوجع ثم أطالبك بأن تطبب نفسك!..

ليتك يا قلبي توقفت.. ليتك ما كنت عنيدًا وتشبثت بالبقاء، فما أشعر به الآن هو أقسى من ذلك الألم الذي وُلِد معي!!.

مكثتُ في المستشفى أيامًا كثيرة.. وبدأ قلبي يعاود الحياة مجددًا..

أكَّد الطبيب كلام العام المنصرم بأني قد شُفيت تمامًا، وأضاف أن ما حدث لي هو إجهاد نفسي يجب ألاّ أعرض نفسي له سواء كنت صاحبة قلبٍ معافى أو صاحبة قلبٍ مريض..

وأضاف مبتسمًا: الحب يقتل أكثر القلوب عافية.. ويعيد الحياة لأكثر

القلوب مرضًا.. لا تقلقي فقلبك عنيد ويصر على البقاء وأصبح في حالة تسمح له بصدمة جديدة..

ثم ضحك هو وأختي..

لم أجرؤ على السؤال عن رامي.. لقد أسعفني هو إلى المستشفى في تلك الليلة، لكني دخلت في غيبوبة أفقتُ بعدها على وجه أختي المتورم بكاءً، وبحثت بعيني عن رامي فلم أجده، ولم ترحم أختي ذلك التساؤل الملح الذي كان واضحًا في عيوني، تجاهلته تمامًا وكأنها كانت تطلب مني أن أنساه !!... بالتأكيد أخبرها رامي بما كان.. يا إلهي.. ترى ماذا أسمعته أختي من كلامٍ قاسٍ ؟! هي التي لا تطيق أن تسمع حديثًا عن زوجتين لرجل واحد !!.

كانت مها لا تزال تقضي شهر العسل في جزر الباهاما، ولن تعود قبل أسبوع على الأقل، شعرتُ بأني أشتاق لها كثيرًا وأحتاج لوجودها بشدة ..

عندما غادرتُ المستشفى وعدت إلى الشقة وجدت موظف الاستقبال يسلمني باقة ورد كبيرة موضوعة في آنية للزهور لونها خشبي ومنحوت عليها كلام كثير، شعرت بوجه أختي قد تغير وأخذتها من الموظف بحدة وهي تقول لي:

– هذه الزهور لن تغيِّر من الوضع شيئًا..

شعرتُ بحنقها وغضبها فسكتُ، حتى أني لم أطلب منها أن أحمل الزهور... وفي المصعد حاولتُ أن أسترق النظر إلى الكلام المكتوب على الآنية، لكني لم أقدر!..

وفي الليل وعندما نامت.. تسللتُ على أطراف أصابعي وأخذت الزهور وقرأت الكلام المنحوت على الآنية.. ترقرقت دموعي ثم انحدرت بهدوء على وجهي.. لم تكن أكثر من كلمة واحدة متناثرة على الآنية : (أحبكِ)...

وهل لي غير البكاء ومزيد من البكاء ؟!!...

الطبيب قال لي إن عليَّ أن أمارس حياتي الطبيعية!!..

حياتي الطبيعية!!..

أي حياة هذه بلا رامي ؟!..

قلبي كان مكسورًا والنوم هجرني.. كنت أريد أن أغادر، لولا موعد الطبيب الذي يلزمني بالبقاء حتى منتصف نوفمبر، وهذه الذكريات بدأت تشتد عليَّ مع اقتراب موعد عيد القديسين!!.

ما أسرع ما مضت سنة!!.

كنتُ متأكدة أن رامي قد بعث لي برسالة على بريدي الإلكتروني، لكن أختي ومنذ عودتي من المستشفى ادَّعت أن الكمبيوتر تعطل وأن شخصًا ما يصلحه.. كنت أعلم أنها تكذب، فحتى هاتفي النقال تعطل

فجأة !... قالت لي عندما ألححت عليها بأني أنتظر بريدًا من عملي ويجب أن تسرع في إحضار الكمبيوتر:

– الطبيب حذَّر من أي انفعال وأمرني بأن أُبعد عنك ما من شأنه أن يؤدي إلى تدهور حالتك النفسية والصحية.

قاطعتها :

– أتوسل إليكِ فمها ليست هنا والملل يكاد يقتلني، ثم أنا لم أعد طفلة حتى تعامليني هكذا.

– بل أنتِ ما زلتِ طفلة؛ وطفلة متهورة؛ تنوي القضاء على حياتها من أجل شيءٍ لا يستحق.

قلتُ بانفعال:

– رامي لا ذنب له في كل ما حدث وأنا لم أكن أنوي أن أقبل به في كل الأحوال، فِلمَ أنت متحاملة عليه إلى هذه الدرجة ؟!.. ثم من قال لك إنه لا يستحق؟.. بل هو يستحق أكثر.

سكتت.. ربما خافت أن أنفعل أكثر.. تظاهرتْ بأنها منشغلة بترتيب الأوراق المتناثرة على المكتب، وعندما أحسَّتْ بأني انتظر إجابتها نظرت إليَّ قائلة:

– أقدَّر الحب الذي تشعران به.. الحب شيء عظيم، لكن مشكلته أنه لا ينجح في أغلب الأحيان، وقدر المحبين هو الفراق في معظم

الحالات.. أنا لا أحمل شيئًا ضد رامي، بالعكس لقد جلست معه ووجدته شخصًا رائعًا بكل ما تحمله الكلمة.. صريحًا.. واضحًا، ويحبك بصدق ولوعة.. لقد كان يبكي كالأطفال وأنتِ في غرفة العناية ويقسم أن يقتل نفسه إن حدث لك مكروهٌ بسببه.. كاد أن يجن عندما أخبرته بمشكلتك الصحية والتي كما يبدو أخفيتها عنه.. لِمَ فعلت ذلك؟!

كان صوتي مخنوقًا وأنا أقاوم تلك الدموع اللعينة التي اعتادت عصياني الفترة الأخيرة..

– الطبيب قال إني شفيت تمامًا بعد العملية الأخيرة.. ألا تذكرين؟! شعرتُ أنه من الغباء أن أتكلم عن مشكلة لم تعد موجودة أصلاً وكنت محقة، فها هي التقارير الأخيرة ورغم ما حصل إلاّ أنها ما زالت تؤكد أني صرت على ما يرام..

كانت تنظر إليَّ وفي عينيها حنانٌ كبير.. نظرتها تشبه نظرة أمي تمامًا، لقد ورثت الكثير عن والدتي: الشكل والطبع والصبر وكتمان المشاعر والحنان المتدفق بلا حدود.. كانت تحسُّ بكل ما تختلج به مشاعري في تلك اللحظة..

اقتربتْ مني ومسحت على شعري وهي تقول:

– أنت أختي وأعرف تمام المعرفة أن وضعه لن يروقك مهما تغاضيت

في البداية بسبب الحب، لا أريدك أن تُصدمي يا يارا، أنتِ مثلي لا تقبلين أنصاف الحلول ولا تستطيعين أن تتنازلي عن نصف حقك.. لو كنت أعلم أنك ستتحملين وضعه الاجتماعي الغريب لشجعتك على الاقتران به ووقفت إلى جانبك لإقناع أمي وأبي.. هو أيضًا، كل ما يهمه الآن هو ألاّ يفرط فيكِ، لكنه في نفس الوقت لا يعرف إن كان ما يفعله هو الصح أم لا..

عليكِ أن تنسي رامي تمامًا، هذا لن يأتي بين ليلة وضحاها أعلم هذا جيدًا ولكني أعلم أيضًا بأنه ليس مستحيلاً.. تذكري دومًا أن والدينا لن يقتنعا به مطلقًا فإذا ما استطعنا إقناعهما أنه ليس من نفس الجنسية فكيف سنقنعهما بأن يتنازلا عن كونه متزوجًا ولديه طفل مهما شرحتِ لهما ظروفه..

طأطأتُ رأسي حتى لا ترى دموعي التي تساقطت وقلت:

– لو لم يُخفِ عني حقيقته منذ البداية لما كنتُ وقعتُ هذه الوقعة المؤلمة.. كلهم يكذبون...

بكيتُ على صدر أختي كثيرًا ونمت بعدها ورامي لا يفارق مخيلتي...

في اليوم التالي أخذتني أختي إلى جامعة جورج واشنطن، وعندما وصلنا إلى هناك قالت:

– حان الوقت لتكملي دراساتك العليا..

قلتُ باستغراب:

– كان عليك أن تسأليني أولاً!

لم تجب!

قلت بإصرار كالأطفال وأنا أتوقف عن السير:

– لا يمكن أن تفرضي عليَّ الدراسة في الوقت الذي تشائين..

قالت بهدوء وهي تجذبني من ذراعي:

– بل تحدثنا العام الماضي وقلتِ إنكِ ستبدأين هذه السنة، كان هذا اقتراحك أنت!!.

تذكرتُ فعلاً عندما قلت لها إنني أنوي البدء في دراسة الماجستير وربما الدكتوراه أيضًا، ولكن كل هذه المخططات كانت قبل أن ألتقي رامي، والدراسة هنا يعني أن أبقى قريبة منه.. هذا جنون..

قالت لي:

– أعلم ما تفكرين فيه لكنك تعلمين أن والدي يرفض تمامًا أن تذهبي للدراسة وحدك، وشرطه الوحيد أن تبقي معي في نفس الولاية إن أردت إكمال تعليمك، أم أن رامي سيكون سببًا في عرقلة مستقبلك الدراسي؟...

قلتُ بصوت منخفض:

– لكن هذا يعني أن أبقى قريبة منه وأنت تريدينني أن أنساه!

obeikandl.com

– لا.. أنا لا أريد منكِ شيئًا، وسأوافق على كل ما تقررين حتى وإن قرَّرتِ الزواج منه.. ما قلته لكِ لم يكن أكثر من مجرد نصيحة، وفي حقيقة الأمر كلامي لم يكن إلا صدىً لما تفكرين فيه يا يارا..

نعم كلامها صحيح..

عدنا إلى البيت..

كان الكمبيوتر قد وصل وحرارة هاتفي أيضًا عادت!..

أخبرتني أختي أن السيد أحمد عزمي دعانا إلى العشاء اليوم في مكان على ميناء هاربور في جورج تاون..

لم أجرؤ على الرفض..

كانت تحاول أن تشغلني بشتى الطرق حتى لا يبقى متسعٌ من الوقت للتفكير في رامي..

هي تظن أني سأقدر على نسيانه... كم هي مخطئة!!.

لم تقتصر الدعوة عليَّ أنا وأختي، بل كانت هناك بعض وجوه عربية وأمريكية لا أعرفها.. كان الجميع يتحدث ويضحك ويعلِّق.. لا أدري إلى أي مدىً بدوتُ صادقة في انفعالاتي.. شعرتُ أني كنت خارج هذا الإطار الأربعيني والخمسيني بمواضيعه الأكاديمية والاقتصادية، أنا لا أنتمي الآن لأكثر من ذاكرة متعبة، وقلب يتعافى شرط عدم استخدامه!!.

وعندما تحول الحديث إلى نقاش مستفيض عن أحداث الحادي عشر من أيلول، لم أشعر برغبة في سماع المزيد من التحليلات السياسية ووجهات النظر المختلفة.. يكفيني ما أشاهده يوميًا على شاشة التلفزة والإنترنت..

همست لأختي بأني سأتمشى قليلاً.. كنت أريد أن أستنشق هواء النهر.. أن أبتعد عن هذا الحصار الممل لوجوه تجبرني على ابتسامة ميتة..

لم أكن أعلم أني سأشعر بكل هذه الغيرة وأنا أرى العشاق يتناثرون هنا وهناك، فقط ليذكروني بقسوة متناهية بأني وحدي..
كان النهر أسود؛ كما أيامي. ليتني أصرخ وأصرخ حتى أوقظ التاريخ وأعيد ترتيب الأيام وأضعني ورامي في تاريخ لا يعرفه غيرنا.. فيه نلتقي ونحب ونتزوج وننجب يوسف!..

كان هناك عاشقان يتبادلان القُبل.. تذكرت تلك القبلة اليتيمة على شفتي.. تلك القبلة التي شُحنتْ كثيرًا وانتظرتْ طويلاً حتى خرجتْ في شكل مجنون وصاخب.. ليتها كانت أكثر هدوءًا حتى أستطيع تذكرها واستحضارها في خيالي!..

فجأة تذكرت رسالة طارق..

لقد أهملتها كما أهملني كل تلك الشهور، إنه لا يستحق مني حتى عناء الرد.. لكن من يدري لِمَ كان يريدني أن أتصل به ؟! كانت رسالته تبدو جادة ومستعجلة.. على كل حال عندما أعود اليوم سأقوم بتصفح بريدي وقد أرد عليه !!.. ترى هل سأجد رسالة من رامي.. لِمَ لا يحاول الاتصال بي ؟! ترى هل لا يزال يحفظ رقم هاتفي كما أنا لا أزال أحفظ رقمه ؟!

راودتني رغبة ملحة في الاتصال به.. لِمَ لا ؟! سأستمع لصوته وأقفل الخط..

أخرجت هاتفي من الحقيبة وحظرت الرقم.. ترى هل سيعرف من هو المتصل ؟!

بلعت ريقي بصعوبة.. ظلَّ الهاتف يرن طويلاً.. ربما هو نائم.. ربما لا يريد أن يجيب على رقم محظور ؟!

وأخيرًا.. فتح الخط..

– مرحبًا..

ارتعشت يدي وكاد الهاتف يسقط مني..

لم يكن صوت رامي.. بل صوت نسائي رقيق..

– ألو.. ألو..

سمعت صوت رامي يقول لها: مَنْ؟!

– لا أعرف لقد رن طويلاً وأنت تستحم.. الآن لا مجيب..

وكأنه أخذ السماعة منها بسرعة.. وبلهفة وارتباك:

– نعم.. آلو.. مرحبًا...

لقد عرف أنه أنا.. ولكني أقفلت الخط..

حتى دقائق معدودة، كنت أظن هذه المرأة خرافة.. غير موجودة.. نعم كان يتحدث عنها، لكني حسبتها مجرد امرأة على ورق لا وجود حقيقيًا لها في الحياة.. لكن ها هي موجودة فعلاً.. صوتها رقيق.. قد تكون جميلة أيضًا.. كانت تحدثه ببساطة ومودة.. وهو.. هو كان يسألها بأريحية وبساطة عن المتكلم!!

كان يستحم.. لماذا ؟! هل أصدق بأنه لا يقترب منها أبدًا.. هراء.. هراء.. هراء..

تلك المرأة موجودة.. وبقوة..

رنَّ هاتفي..

كان هو.. لا يزال يذكر رقمي...

ماذا أفعل؟!

لا شئ غير البكاء.. والبكاء والبكاء...

كنت أريد أن أصرخ.. يا الله طالت مدة العذاب هذه المرة، أنت يا الله كنت دومًا معي، جذبتني من الموت ألف مرة ووهبتني الحياة مؤخرًا.. لِمَ فعلتَ هذا ؟! ليتك استعدت روحك التي بثثتها في جسدي.. يا رب لقد خلقت لي قلبًا عليلاً ثم شفيته ليشقى بعلة أخطر.. لِمَ يا رب وأنا كنتُ دومًا أشعر بحبك وحنانك.. أي درس قاسٍ هذا الذي تريد مني أن أستوعبه؟!!.

فجأة سمعت صوت أقدام خلفي..

فزعت.. التفت لأجد سعدًا.. كان يقف وعيناه مشدوهتان.. الهاتف كان يرن وأنا كنتُ أتأمل الرقم وأبكي بحرقة..

شعرتُ بخجل كبير وانتفضت من مكاني، لكنه جلس بسرعة بجواري وهو يضغط على كتفي برقة لأعاود الجلوس:

– يارا ما بكِ.. لِمَ تبكين؟! وهذا الهاتف لماذا لا تردين عليه؟!

أقفلتُ الهاتف ووضعته في الحقيبة.. قلت بصوت متقطع:

– كم أشعر بالخجل منك يا سعد...

أعطاني منديلاً وهو يقول بصوت حنون وابتسامة دافئة:

– لماذا يا يارا..؟! قولي لي أتحبينه إلى هذه الدرجة؟!

نظرتُ إليه بدهشة..

ابتسم ابتسامة عريضة.. ثم أضاف بشيء من السخرية:

– لا تستغربي، فعلامات الحب لا تخطئها العين، خاصة إذا كان الشخص قد مرَّ بذات التجربة.. صدقيني بعد مدة سيطيب الجرح وتجدين طريقة ما للتعامل معه..

يا إلهي، هذا الحب لم يترك قلبًا إلاّ ودمَّره.. ما بالك يا حب تتفنن هكذا في تعذيبنا؟!!

كان يحدثني بصدق وشفافية وكأنما نحن أصدقاء منذ زمن بعيد..

مسحتُ وجهي.. قلت له بصوت متهدج:

– أتمنى هذا..

لم أستطع أن أنظر إلى عينيه..

قال :

– ما زلتُ أتذكر ذلك اليوم الذي لازمتنا فيه بجانب البيت الأبيض.. كنتِ رائعة لقد اهتممت وقلقت علينا وكأننا جميعًا أصدقاؤك، كان يومًا لا يُنسى..

تنهد وكأنه يستعيد تفاصيل ذلك اليوم...

قلت :

– نعم كان يومًا لا ينسى حقًا.. لكن هل كنت تبحث عني الآن؟!

– بلى.. العم أحمد اتصل بي اليوم ودعاني أيضًا لكني تأخرت، وعندما وصلتُ طلب مني أن أبحث عنكِ، لقد اعتقد أن الجو لم يناسبك...

obeikandl.com

وفجأة قال :

– لِمَ لا نكون أصدقاء؟! مها تزوجت ولن تكون متفرغة لكِ كما في السابق...

ابتسمت.. كم هو بسيط هذا المخلوق ومباشر في طريقة كلامه.. لا غموض ولا كلام يحتمل ألف معنى..

حاولت أن أبتسم وأنا أقول:

– لا أظن ما رأيته الآن يشجع على صداقتي..

جذبني من ذراعي قائلاً وهو يضحك :

– لا تقولي كلامًا غبيًا.. تعالي هيا.. اغسلي وجهك من آثار الدمار.. وأعدك أن تضحكي الليلة كثيرًا وتنسي كل همومك..

كان مرحًا جدًا ورفقته مسلية فعلاً،وعلى الرغم من ذلك النْزيف الداخلي الحاد الذي رافقني طوال الوقت، إلا أن سعدًا أخرجني؛ ولو ظاهريًا؛ من ذلك الجو المعتم وطغى صوته قليلاً على صوت تلك المرأة التي أجابتني على الهاتف !.

obeikandl.com

(١٢)

قبَّلتني أختي قبل أن تأوي إلى الفراش، وطلبت مني أن أنام حتى أتمكن من الذهاب غدًا إلى الجامعة لأنهي مرحلة التسجيل وتحديد التخصص، كانت تريديني أن أبدأ الدراسة في أقرب فصل دراسي وهذا يعني أن عليَّ العودة في الربيع..

انتظرتها حتى نامت وتوجهت بهدوء شديد إلى الكمبيوتر...

يا إلهي.. عشرات الرسائل..

بحثتْ عيناي عن رسالة من رامي، ووجدت رسالتين منه: واحدة كانت مؤرخة بتاريخ سابق عندما كنت لا أزال في المستشفى.. والثانية مؤرخة بتاريخ اليوم قبل ساعتين من الآن.. أي بعد أن اتصلت وأجابتني تلك المرأة..

عاودتني تلك الغصة في قلبي وذلك الحريق الذي شعرت به يأكل داخلي.. هل تعقل كل هذه الغيرة من صوت؟!..

فتحت رسالته الأولى..

(قولي لقلبك الذي كنت أُعبِّد له طريق الموت دون أن أدري.. أن يقبل اعتذاري أو يقبل موتي بدلاً عنه.. عاتبيه.. ولكن عتابًا رقيقًا لأنه أخفى عني وجعه وسمح لي أن أسكنه بكل تلك الهمجية، محدثًا كل

ذلك الضجيج والصخب الذي لم يحتمله.. توسلي إليه أن يعطيني فرصة لأعيد له ربيعه.. قولي له إني أحبه)...

وفي الرسالة الأخرى كتب..

(لِمَ أقفلت الهاتف ؟!.. ولِمَ لم ترحمي عذابي ؟!. الله وحده يعلم حجم العذاب والألم اللذين أعيشهما الآن !!. لا تستغربي من عدم اتصالي، لم أجرؤ على الاتصال، لم أجرؤ على تعذيبك مرة أخرى.. لن أترك فرصة لقلبك أن يموت.. موتك هو موتي أنا.. أُفضِّل ألف مرة أن تحيي بعيدًا عني على أن يطالك الموت بسببي.. يعزيني ملايين المرات أن أعلم أن وجودك يحيطنيح ولو من بعيد؛ على أن ترحلي عني.... يا يارا، هذا الله يسمعني ويشهد على كلامي، أني لم أحب في حياتي سواكِ، ولن أحب في حياتي سواكِ، وأني فعلت ما بوسعي للاحتفاظ بكِ، ولا أجد حلاً أفضل مما عرضته عليكِ..

سأتركك تفكرين وتقررين.. وخذي من الوقت ما تشائين.. وأقسم لكِ لو عدتِ بعد ألف سنة لتعلني لي موافقتك سأهلل وأفرح وأسجد لله حمدًا.. أعلم ما أصابك عندما سمعتِ صوتها، لكن والله هي لي لا شيء، وأنتِ لي كل شيء !).

حبيبك..

في تلك الليلة أجهز عليَّ الألم وافترسني بلا رحمة...

وفي الصباح لم أشعر برغبة في الخروج، ولم تلح عليَّ أختي بعد أن قلتُ لها إني أشعر بالإعياء.. كان عليَّ أن أفكِّر وأفكِّر .. كان عليَّ أن أقتنع بالقرار الذي أتأرجح بينه وبين قرار آخر يقول: (اقبلي، قد لا يكون الوضع بذلك السوء) ثم أعود أتذكر أبي وأمي؛ فأتراجع.. أتذكر عيون رامي فأحتار.. يعاودني صوت تلك المرأة فأشتعل غيرة وحنقًا وأشعر بشيء ما يقطع داخلي بلا رحمة..

حاولتُ أن أشغل نفسي بترتيب الشقة؛ لكني لم أفلح في هذا التناسي.. وأخيرًا اتجهت إلى الكمبيوتر.. لِمَ لا أشغل نفسي بالرد على ذلك الكم الهائل من الرسائل وأدردش قليلاً؟..

في هذه المرة غيَّرت تلك الكنية التي اعتدتُ الدخول بها ودخلتُ باسم "قلب مجروح" نعم فهذا ملائم لما أشعر به.. لا أدري.. ربما أريد تعذيب نفسي أكثر باختيار كنية هي في حقيقتها تقليد لكنية الرجل الذي أحببت !..

فكَّرتُ أن أجيب على رسالة طارق، لكني وللمرة الألف غيَّرتُ رأيي.. البحث عن وجع جديد الآن لن يكون مجديًا لي، بل سيقضي عليَّ تمامًا، ولا داعي لفتح باب طارق من جديد، إنه لم يكن ليحمل لي وجعًا أقل أو ابتسامة أكثر، لقد كدتُ وأنا أحاول نسيان رامي أن أجعل منه البديل؛ لولا معرفتي لاحقًا بهويته الحقيقية التي دأب على

إخفائها عني طيلة كل تلك الأشهر التي قضيناها في الدردشة مناقضًا بذلك عرف الجنس الخشن المستعد للإدلاء بكل معلوماته الشخصية بعد فترة قصيرة من الحوار قد لا تتعدى اليومين أو الساعتين، خاصة إذا أخذ وعدًا من الطرف اللطيف بمقابلته أو محادثته هاتفيًا، ولكن تحفظ طارق الزائد على الحد لم يكن إلاّ لأنه كان يعلم أني قد أكون على معرفة باسم أسرته وأكتشف لاحقًا حقيقة كونه متزوجًا وأبًا لطفلين، لكن المصادفات الغريبة والتي قد تخدم الإنسان أحيانًا بطريقة مذهلة، قامت بهذا معي عندما تسلمتُ بريدًا إلكترونيا بطريقة الـ (Forward[١٢]) مبعوثة أصلاً من طارق إلى هذا الشخص، ولاحظت فورا عنوان طارق البريدي يلي عنوان الأول !..

ورغم أن طارق نجح في وضع نفسه محورًا لأيامي وتفكيري متحديًا بذلك تواجد رامي الطاغي على وجداني، إلاّ أن الصدمة عندما عرفت الحقيقة لم تكن بذلك الألم المتفوق على الحد الطبيعي لقدرة الإنسان على التحمل؛ كما كان الحال عندما عرفت حقيقة رامي.. تلك الحقيقة الملعونة التي حالت بيني وبينه !!.

كنتُ أردُّ على بعض الرسائل وأدردش في نفس الوقت.. ومرُّ الوقت ولم أشعر به، كنت أضحك كثيرًا على بعضهم وأتجاهل الكثير

(١٢) في لغة الرسائل الإلكترونية، إعادة بعث ذات الرسالة لشخص آخر.

منهم.. يبدو أن هذه الكنية الإلكترونية أعجبت الكثير ممن اعتقدوا أنهم قادرون على شفاء جرحي.. كان بعضهم جادًا في عرضه أن يخفف عني الألم؛ ولو أن هذه العروض كانت تختلف في طريقة التنفيذ بين من يحثني على التحاور معه أو اتخاذه صديقًا أو مقابلته ووضع جرحي على جرحه، ويبقى ذلك البعض الذي لا تخلو منه مواقع الدردشة والذي دعاني ويدعو أي فتاة لممارسة الجنس معه؛ ولو حتى عبر الإنترنت !!.

لقد أتاح هذا العالم الإلكتروني بتلك الميزة التي تسمح لك بإخفاء شخصك وهويتك الحقيقية، والتي قد تتحول في أحيان كثيرة إلى كارثة إنسانية عاطفية، لأن تقول وتفعل ما تشاء، لِمَ الخجل ولا أحد يعرفك ولن يعرفك ؟!.

كنتُ أشعر بالتعب من الجلوس طويلاً أمام الشاشة، لذا استأذنت أحدهم؛ والذي كان يسرد لي قصة حياته وهجران حبيبته، ووعدته بأني سأتحاور معه بعد العاشرة مساءً؛ أي بعد أن تنام أختي !.

وحوالي الساعة السادسة مساءً؛ رنَّ هاتفي المحمول، تفحصت الرقم.. لا أعرفه.. ربما رامي يريد خداعي حتى أجيب، لكنه قال في رسالته إنه لن يتواصل معي حتى أقرر أنا التواصل معه !..!!

وعندما أجبت.. لم أستطع منع خيبة الأمل التي شعرت بها داخلي..

ليته كان رامي.. ليت كل العالم يستحيل إلى رامي..!

كان سعد هو المتحدث، وكان صوته في الهاتف يوحي بشخص أكبر سنًا، كان صوته من ذلك النوع المخنوق الهادئ الذي عليك أن تعتاد سماعه لفهم كل حرف يقوله، إلاّ أن الأمر لا يبدو بهذه الصعوبة عندما يتيح لك اللقاء الفعلي مراقبة شفتيه وهو يتحدث.

فاجأني اتصاله وفاجأتني كذلك دعوته بأن نشاهد فيلمًا الليلة ثم نذهب إلى العشاء في مكان ما، ولا أدري لِمَ شعرت بالحرج وقبلت دعوته!..

لقد كان لطيفًا معي تلك الليلة... ولكن هل أُعجب بي فعلاً حتى يقوم بدعوتي بهذه السرعة؟!

رغبتي كانت شبه معدومة في الخروج.. لم أكن أرغب في التحدث ولم يكن بوسعي المجاملة ولو بإطلاق ضحكات كاذبة، لكني لم أستطع رفض دعوته.. شعرت بأني كنت سأجرح كبرياءه إن أنا فعلت..

أختي كانت سعيدة بخروجي هذا وطلبت مني أن أفكر جديًا في صداقة سعد، خاصة إذا رجعت إلى هنا بعد عدة أشهر للدراسة.. كانت تشعر بحيرتي وخوفي قالت:

– أنا لا أقول لكِ أن تحبيه، ولكن اتخذيه صديقًا أو أخا على الأقل..

محقة... مها لن تكون متواجدة على الدوام؛ كما كانت قبل الزواج

وسعد شخص لطيف جدًا ومرح وعشري ولن تضيرني صداقته شيئًا.. لكن عليَّ أولاً أن أتأكد ما إذا كان منجذبًا نحوي بطريقة مختلفة، لأن هذا حتمًا سيدفعني للابتعاد فورًا!...

اليوم لا مكان لأحد في القلب سواه.. وسعد لا يستحق أن يمر بتجربة فاشلة بسببي!!.

كان الفيلم سيبدأ الساعة الثامنة، وكان سعد ينتظرني الساعة السابعة والنصف لنتوجه بعدها إلى السينما..

كان فيلمًا كوميديًا رائعًا... لقد قضيت وقتًا جميلاً مع سعد الذي لم يتوانَ لحظة واحدة عن فعل أي شيء يسعدني.. من حركاته التلقائية المضحكة، إلى تلك النكت التي كان يجيد فن إلقائها، إلى تلك اللحظات التي كان يتطرق فيها إلى مواضيع جادة نناقشها ثم ينأى بنا النقاش إلى أمور أخرى وتذكر مواقف عدة مضحكة.. والأفضل من هذا كله أن خوفي زال مع الوقت ولم أشعر لدقيقة واحدة أن سعد كان يتأمل شيئًا آخر من وراء دعوتي!.

كان الكلام معه مسليًا للغاية، وحتى عدنا لم أكن أدرك أن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعشر دقائق!.

كان ودودًا في طريقة وداعه قبل أن أترجل عن سيارته، وأخذ مني وعدًا بالتواصل الدائم معه وعرض عليَّ أن يقوم معي بكل إجراءات

التسجيل؛ خاصة أنه بدأ للتو في تحضير الماجستير ويستطيع مساعدتي حتى على اختيار التخصص..
ودَّعته بحرارة وأنا أشكره على لطفه وعلى هذه الليلة الرائعة!.

وعندما تواريت في البهو الداخلي للعمارة.. لا أدري لِمَ شعرت بعيون تراقبني.. التفتُ، ومن خلال الباب الزجاجي رأيت سيارة تمر بسرعة خاطفة؛ لم أتبين نوعها، لكني شعرت بها تخطف روحي معها... ترى هل كان رامي فعلاً ينتظرني هناك ؟.. هل يأتي ليراني ولو من بعيد؟! وإن كان هو؛ كيف سيفسر وجودي مع سعد؟!

متعة تلك الليلة تبخرت، ولم أصل إلى الطابق الذي نسكن فيه حتى كانت كل تلك الغبطة قد زالت وحلَّ محلها.. رامي..!!

كانت أختي قد نامت بالطبع.. خلعتُ ثيابي ولبستُ ثياب النوم.. فجأة تذكرت ذلك الشاب الذي وعدته بالدردشة معه بعد العاشرة مساءً.. ولكن من قال إني أريد أن أسمع، أنا أريد من يسمعني..

قررت أن أجلس لتصفح بريدي قبل أن أنام.. ربما بعث شيئًا !!.. كان البريد خاليًا إلا من بعض رسائل دعائية معظمها لشركات إباحية تنشر القذارة على طول الكرة وعرضها، وللأسف تجد لها زبائن كثيرين.. لم يكن ذلك الأخ موجودًا بين الأسماء التي في قائمة غرفة الدردشة، بالتأكيد ملَّ الانتظار، أو أنه لم يأتِ أصلاً، فما أسرع ما

تنسى من تحدثهم في هذا العالم الإلكتروني !... تدافعت أسماء كثيرة للحديث معي، لكن لفت انتباهي شخص في الغرفة الرئيسية يسخر من المقاطعة ومن القضية الفلسطينية التي نسيها أصحاب الشأن أنفسهم، ويسب العرب وكل زعماء العرب الذي باعوا الأرض والعرض ولم يكتفوا بهذا بل ما زالوا يفاوضون فيما تبقى من كرامة.. وإن كنت لم أجد بما أدافع به عن شتمه لمواقف العرب وزعماء العرب؛ إلا أني بالتأكيد كان لديَّ ما أقوله حيال المقاطعة وأرد عليه بما يستحق... واستعر الجدال بيننا في الغرفة الرئيسية، وشاركنا هذا الجدل كل من كان في الغرفة بين مؤيد لي ومؤيد له، وتشعب الحديث ليطول العمليات الفدائية والشهداء، فزادت حدة النقاش.. ووجدتُ نفسي للمرة الأولى أرغب في شتم وسبّ هؤلاء الأمساخ البشرية مميعة الأفكار ومشوهة المعالم... لكن ذلك الغبي تجاوز حده عندما بدأ يتناولني وغيري بألفاظ بذيئة؛ هي على كل حال ليست غريبة على عالم الدردشة، لكنها كانت غريبة عليَّ أنا لأني لا أدخل عادة الغرفة الرئيسية والتي غالبًا ما يكون الحوار فيها على هذه الشاكلة !!.

خرجتُ من الغرفة الرئيسية بعد أن نعتُّه بصفات غير آدمية، وحاول محادثتي في الغرفة الخاصة؛ فما كان مني إلا أن وضعته في حالة تجاهل.. كان هناك كثيرون بعثوا لي في الغرف الخاصة، ولكني لم

أتمكن من الرد على أحدهم حتى فرغت من هؤلاء الأنجاس وخرجت من الغرفة الرئيسية..

بدأت أردُّ على بعضهم لكن لفت انتباهي كنية أحدهم ويدعى (VividMeMories[١٣]) وكان قد بعث لي عدة رسائل وأنا مشغولة بذلك النقاش السخيف:

(VividMeMories) > لِمَ تدخلين نفسك في مثل هذا النوع من النقاش؟!

(VividMeMories) > هيا أجيبيني يا صاحبة القلب المجروح.. أقسم لكِ أنهم حثالة ولا يستحقون منا عناء الرد.. إنهم الآن يستمتعون بإغاظتك لا غير..

(VividMeMories) > اتركيهم وحدثيني أنا.. ألوووووووو...

بعثت له قائلة:

(قلب مجروح)> أعرف، لكن السكوت أيضًا غير صحيح.. أنا حتى لا أحب دخول الغرف العامة فكل ما يحدث فيها لا يقل مستوىً عما رأيت اليوم..

(VividMeMories) > أخيييييرًا....

(قلب مجروح) > loooool اعذرني على هذا التأخير في الرد.. كنيتك جميلة..

---

(١٣) كلمتان في كلمة واحدة، وهذا شائع في عالم التحاور وتعني "ذكريات مشرقة".

obeikandl.com

(VividMeMories) > شكرًا، وكنيتك حزينة.. ما باله قلبك ؟!

تنهدتُ.. لا أريد أن أدخل في متاهة حوار كئيب لذا قلت له:

(قلب مجروح)> بل أخبرني أنت عن ذكرياتك الزاهية كما تقول كنيتك...

(VividMeMories) > هي مجموعة كل ما مضى من عمري.. كان فيها لحظات فرح ولحظات أخرى حزينة، لكني أرى أن كل ما يمضي من حياتنا علينا أن نسترجعه بابتسامة.. لأنه مضى.. وانتهى..

(قلب مجروح)> لكن هناك أشياء يمر بها بعض الأفراد وتكون مؤلمة للغاية، صعب أن نتذكرها بابتسامة حتى وإن كانت قد مضت وانتهت.

(VividMeMories) > لا أنتِ تتحدثين عن أشياء ما زالت في حكم الحاضر وليس الماضي، أما عندما تتوغل في عمق الزمن وتتجذر فيه فعندها تصبح ماضيًا، والماضي يجب ألاّ يجرحنا لأنه انتهى.. دور الماضي يتلخص في مروره على ذاكرتنا كانهمار مطر شديد أو خفيف نغرق في تأمله إما للحظات قصيرة إما قد تطول بحسب قدر أهمية ما نتذكر لكن في كل الأحوال علينا أن نبتسم.. لأنه انتهى !.

قرأتُ كلامه مرتين.. كان كلامًا جميلاً ومرتبًا.. نعم فرامي لا يزال في حكم الحاضر لكن سيأتي يوم ويصبح ماضيًا، غير أني لست متأكدة

أني سأبتسم عندما يمر على ذاكرتي !!.

وكأنما سمع هذا الشخص أفكاري.. قال:

(VividMeMories) > قولي لقلبك الحزين ألاّ يقلق فمن خلال نقاشك في الغرفة العامة استنتجت كم أنت فتاة ناضجة وواعية وهذا يكفي الإنسان ليتجاوز محنه...

بالمناسبة.. ما اسمك؟ إن كان هذا السؤال مزعجًا لا تردي عليه !

(قلب مجروح)> لا أبدًا.. يارا.. وأنت؟!

(VividMeMories) > سيف.. اسمك واسمي بينهما حرف مشترك ;) [١٤]

ابتسمتُ...

(قلب مجروح)> وهل هذا يعني شيئًا؟!

(VividMeMories) > بالطبع.. هذا ثاني تشابه بيننا.. وقبل أن تسأليني عن التشابه الأول سأقول لكِ ما هو.. آراؤك التي كنت تجادلين بها في الغرفة الرئيسية هي آراء أوافق عليها تمامًا، إذن هذا أول تشابه بيننا، والاسم هو التشابه الثاني...

(قلب مجروح)> looooooool ☺.. كم عمرك يا سيف؟

(VividMeMories) > وهل يحق لي أن أسأل ذات السؤال؟ (;

---

(١٤) المتحاور يغمز للطرف الآخر.

obeikandl.com

(قلب مجروح)> بالطبع.. عمري خمسة وعشرون عامًا..

(VividMeMories) > وأنا ٣٢ عامًا، وقريبًا سأعانق الثالثة والثلاثين رغم أنه عناق لا أحب أن أكون طرفًا فيه ☹...

(قلب مجروح)> loool كنت دائمًا أقول إن الرجال أيضًا لا يحبون ذكر أعمارهم ويحاولون دومًا أن يقذفوا بهذه التهمة على عاتق المرأة وحدها..

فجأة تذكرت.. فبعثت له بسرعة:

(قلب مجروح)> هل أنت متزوج؟!

(VividMeMories) > في الحقيقة كنت متزوجًا بفتاة أمريكية لكن يبدو أن إسلامها كان مزيفًا، لقد أسلمت من أجلي وليس لقناعتها به فانهار زواجنا بعد أقل من سنة.. لكن هذا حدث قبل ثلاث سنوات تقريبًا.. هل لديكِ أي تحفظات تجاه الحديث مع رجال مطلقين؟!

كم كان بسيطًا وهو يقول الحقيقة.. لِمَ لَمْ يفعل رامي أو طارق الشيء ذاته؟!

(قلب مجروح)> لا لا.. لا يوجد لدي أي تحفظات.. أحترم صدقك في الإجابة عن سؤالي.. لكن لو كنت متزوجًا هل كنت ستخبرني أم ستخفي عني الحقيقة؟!.. وهل يوجد لديك أطفال؟!

obeikandl.com

(VividMeMories) > سأرد على سؤالك الأخير أولاً، لا لم أرزق بأطفال منها..كانت تستخدم الموانع؛ والحمد لله أنها فعلت.. أما ما يخصّ سؤالك الذي قبله فلا أدري إن كنتُ سأخفي عنكِ أمر زواجي لو كنت متزوجًا، من وجهة نظري لا أرى ضرورة لأن يدردش المتزوجون سواءً كانوا رجالاً أم نساءً لأنه عادة ما ينتهي الأمر بعلاقة ما، لذا لا أنصح المتزوجين عمومًا أن يلجوا هذا العالم حفاظًا على الاستقرار العائلي.. عادةً من يخفي كونه متزوجًا ليس إلاّ واحدًا من اثنين، إمّا شخص غير مسؤول يبحث عن المتعة ويبرر لنفسه ما يفعل؛ وعادة ما يدفع ثمن استهتاره هذا، وإما لأنه غير مستقر في حياته الزوجية ويبحث عن البديل.. وفي كل الأحوال إن كان لدى أحد الطرفين وقت للدردشة فلماذا لا يقضيه مع نصفه الآخر بدلاً من البحث عن المتاعب والترفيه اللامسئول؟!

(قلب مجروح)> نعم فكم ينقصنا الحوار في الحياة الزوجية !! إنه الدليل على تواصل الفكر والروح بين أي اثنين فإن غاب لا يتبقى لهما إلاّ حوار جسدي بحت عادة ما ينتهي هو الآخر !!.. ولكن غريب أن يقول هذا الكلام رجل!.

(VividMeMories) > هه..إذن هذا هو الاتفاق الثالث في آرائنا، بقي الرابع وأتقدم فورًا للزواج بكِ.. lol (;

كان مرحًا وشقيًا في طريقة تعليقاته، لكنها شقاوة محببة للقلب وبعيدة عن الإسفاف أو الابتذال الذي يعتمده أو يتعمده البعض..

أخذني الحوار مع هذا الإلكتروني الجديد حتى أذان الفجر، عندما سمعت خطوات أختي خلفي... قالت:

– مع من تدردشين حتى هذه الساعة؟!.. لقد حان وقت الصلاة، هيا انهضي، لا يجدر بكِ الجلوس كل هذه المدة أمام الكمبيوتر، أنتِ في فترة نقاهة وعليكِ أن تنامي وتنتبهي لصحتك.

كانت تتفحص وجهي لتتأكد أني لا أحدث رامي حين قلت لها بشيء من الضيق:

– ليس رامي لا تقلقي.. سأنهض حالاً.

لم تعلق وانصرفت..

لقد سبقني عندما بعث لي:

(VividMeMories) > هل أستأذنك نصف ساعة أو أقل للصلاة وأعود بعدها؟.

(قلب مجروح) > لا داعي لأن تعود، سأصلي أنا الأخرى وأنام.

(VividMeMories) > إذن متى ألقاكِ على الإنترنت مرة أخرى؟ لن أُخفي عليكِ أن الساعات مرت معك كأنها دقائق وأنت تعرفين أن هذا لا يحدث إلا نادرًا في هذا العالم الإلكتروني.. هل يمكن أن ألقاكِ

غدًا في نفس الوقت ؟!

(قلب مجروح) > أفضل أن نلتقي في الحادية عشرة حتى لا نضطر للسهر حتى هذه الساعة.

وافق على اقتراحي..

أقفلت الجهاز وأنا أتساءل:

– هل كان الحديث معه ممتعًا ؟.. أم أردته أن يكون ممتعًا حتى أتمكن من طرد رامي لبعض الوقت من رأسي ؟!

تقلَّبت كثيرًا في الفراش وتأففت وأنا أرى الضوء يقتحم النافذة بهدوء.. أنا لا أطيق النوم عندما أرى النور..

قمت وأسدلت الستائر الغليظة ثم غرقت في سبات عميق..

لقد أغلقت أختي هاتفي النقال وأنا نائمة حتى أتمكن من أخذ قسط وافر من النوم..

وفي مساء ذلك اليوم اتصلت مها لأفاجأ بأنها قد عادت في الصباح واتصلت بي أكثر من مرة عندما كنت نائمة وهاتفي مقفل، قالت لي إن سعد دعاهم إلى العشاء الليلة مع بعض الأصدقاء احتفالاً بعودتهم بالسلامة ولمحت لي قائلة: لقد أخبرني أنكم أصبحتم أصدقاء، متى حدث هذا وأنا تركتكِ قبل ثلاثة أسابيع فقط ؟!..

ضحكت ووعدتها أن أخبرها كل شيء عندما أراها..

obeikandi.com

كان عشاءً جميلاً، ومها بدت متألقة وسعيدة، وإبراهيم بدا طائرًا من الفرحة، عيناه تراقبان عروسه ولا تكادان تبرحانها...

همستْ لي مها:

– أتعرفين بأنكِ بعد أربعة أيام ستحتفلين بذكرى لقائك الأول برامي؟..

دُهشت...

– حقًا؟..

– نعم.. تذكرت هذا الآن.. هل تنوين البحث عن أحدهم هذه السنة؟!..

ابتسمتُ قائلة:

– إذا كنت تنوين الخروج معي..

فجأة قالت مها بصوتٍ عالٍ:

– لِمَ لا نجتمع ليلة الهالويين ونخرج جميعًا في رداء واحد؟

أعجبت الفكرة الجميع، وبدأ كل واحد يقترح لباسًا معينًا، حتى قال سعد:

– فلنلبس لباسًا عربيًا لنرى ماذا سيفعل بنا أبناء الحضارة!

ردَّ إبراهيم:

– هذا جنون وغير منطقي!

obeikandl.com

سأله سعد باستفزاز:

– هل أنت خائف؟!

ودار نقاش ساخن بيننا، البعض يتهم هذا الاقتراح بالتهور وآخرون يؤيدونه، ولا أدري لِمَ ملت لرأي سعد، أنا لا أحب الخوف ولا أطيق أن أشعر بأني متهمة من أحد...

همست لي مها وهي تغمز بعينها:

– إنك توافقين على رأيه...

ضحكت.. قلت لها:

– ليتني قادرة على التفكير في سواه !!

بمجرد أن فتحتُ الباب، وولجتُ إلى الداخل؛ تذكرتُ سيف.. لقد نسيته تمامًا.. كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل.. لم أبدِّل ثيابي، بل ذهبت مباشرة وفتحت الإنترنت.. كان موجودًا.. بعثت له قائلة :

– اعذرني لقد دُعيت فجأة إلى العشاء ولم أنتبه أن أبعث لك برسالة لأخبرك بأني لن أكون هنا على الموعد..

– لا بأس..

شعرتُ بطريقته جافة في الرد..

– ما بالك.. هل لي غير الاعتذار أقدمه لك؟!

obeikandl.com

– بلى..

– ماذا؟!!

– أريد أن أراكِ..

دُهشت..

– بهذه السرعة؟..

– نعم..

لا أدري لماذا خفق قلبي بتلك الطريقة.. هل سأعيد الكرَّة وأهرب من رامي إلى حيث لا أدري؟!.. لكن لِمَ الخوف؟! سيف لم يخفِ عني حالته الاجتماعية كما فعل سابقوه.. من يدري ربما كان يخفي ما هو أشد وأعظم..

لا.. لن أفكر بهذه الطريقة السلبية..

بعثتُ له:

– بصراحة، من أحد الأشياء التي أمقتها في الدردشة هو أن يطلب طرف ما رؤية الآخر بهذه السرعة.. ليس منطقيًا...

– معك حق، وهذه ربما ثاني مرة في حياتي منذ بدأت أدردش أطلب فيها الخروج مع الطرف الآخر، وحتى المرة الأولى لم أطلب الخروج معها إلا بعد مرور أربعة أشهر أو أكثر على بداية الحوار بيننا.. لكن ولأنكِ قلتِ بأنكِ ستغادرين بعد نصف شهر تقريبًا؛ فلا وقت لتأجيل

هذا الموضوع.. لم أتوقف عن التفكير فيكِ طوال اليوم.. مشدودٌ لكِ وشيءٌ ما يدفعني لرؤيتك!!.

– دعني أفكّر... فالأمر ليس بهذه السهولة.. أنا لا أعرفك، وأنت كذلك لا تعرفني..

– نحن راشدان، وعندما نلتقي نستطيع أن نقرِّر إذا ما كان علينا أن نستمر في هذه العلاقة أم لا..

وفجأة برقت فكرة في رأسي!!

يارا ما هذه الحماقة؟!

لكن الفكرة ألحت عليّ بشكل غريب.. لِمَ لا؟ أنا أشعر برغبة أيضًا في رؤية هذا الشخص.. لكن أما كان من الأفضل أن تعطي هذه الفرصة لطارق؟!... لا ، طارق لم أشعر برغبة في رؤيته مطلقًا، كان ألم رامي لا يزال طازجًا، أو كنتُ لا أزال أحلم بأن أكون له في يوم ما، كان قلبي لا يزال ينتظر فرصة ثانية على أمل أن القدر قد يرضخ تحت وطأة أنينه، ولكنه لم يرضخ ولم يحن، بل زاد الأمور تعقيدًا..

أحسست فجأة باللامبالاة.. فليذهب كل شيء إلى الجحيم.. رامي سيتقلب بين أحضان زوجته اليوم أو غدًا.. وطارق تسلّى بي بلا رحمة حتى كشفت كذبه، ما الذي يمنع أن أرى ماذا تحمل الدنيا من قصص أغرب وأعجب؟!.. هل سأقضي عمري أبحث عن رامي؟.. هل

سأدفن نفسي في محرابه وأظل أبكي على أطلاله إلى الأبد؟!.. هل أنا أول من يختارهم القدر لتمثيل الحزن في الأرض، أو أخر من ستكسر الحياة نفسه عن متابعة مشوارها؟!.. هل سأظل أولّي وجهي شطر البكاء؟!.. هل سأحيل عمري إلى تلك اللحظة التي التقيت فيها رامي وأرفض الاعتراف بأن الزمن يتواصل؟!.. كيف سأجفف دموع الداخل المجروح وأحيل هزيمة قلبي إلى نصر إلا إذا أتحت فرصة لشخص مثل سيف؛ شخص يتحدث بهذا النقاء والصفاء، يقول كل شيء، يجيب عن كل الأسئلة، يفهم في الحياة وبكل وضوح، يريد أن يراني لأنه يعتقد أننا قد نحمل لبعضنا تاريخًا مشتركًا وشيئًا أكبر من مجرد الحوار؟!.. ألا يكفي أنه مالك لإرادته، وفي لحظة نستطيع الارتباط؟!

ما هذه التخاريف؟!

أي ارتباط هذا الذي أفكر فيه؟!..

لِمَ لا؟!.. يراودني شعور بأني سأقابل شخصًا مميزًا، وقد وعدني أنه سينسحب فورًا إن فشل في علاج قلبي..

أعجبتني تلك الثقة التي كان يتحدث بها: اسألي نفسك سؤالاً بسيطًا.. هل من المعقول أن الحياة لا يوجد فيها إلاّ ذلك الشخص الذي كسر قلبنا؟! الأحمق سيجيب بنعم لأنه لا يترك فرصة للنهار أن

يزاول على جسده النور.. يظل حبيس الذكرى المظلمة وقد يمضي من العمر في ذلك السجن ما يكفي لأن نخاف الخروج منه والتعاطي مع النور مجددًا. أنا بكل غرور إن شئتِ؛ أحمل لكِ ذلك النور وأنوي أن أحيطك به وأرغمك على الخروج من هذا الكهف البارد المعتم إلى حياة مبسوطة الأرض مفتوحة على السماء فيها الكثير من النور والدفء اللذين تحتاجهما روحك المجروحة!!.

لم يكن من السهل أن أضرب بكلامه عرض الحائط وأرفض هذا العرض المغري بإنهاء كل ما أعاني منه!.

مظاهر الهالويين كانت في كل مكان من تلك البطيخة البرتقالية pumpkin[١٥] التي يحفرون عليها وجها عابسًا أو ضاحكًا، إلى كل تلك الأزياء الغريبة والتي احتل فيها أسامة بن لادن الصدارة هذا العام، بكل تلك الأقنعة المتنوعة لوجهه أو حتى ردائه كاملاً..

وحلَّت ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر...

وكما اتفقت مع سيف.. ارتديت زيًا تقليديًا كما اتفقت مع بقية المجموعة، وكان عليه أن يجدني في تلك الزحمة اللامعقولة!!..

نعم.. هكذا أحرق خصوصية ذكرياتي مع رامي، لا هو يستحق ولا شيء في الدنيا ذو قيمةٍ حقيقة.. سأرى حكاية السيف هذا كم

---

(١٥) ثمرة القرع ويحفر عليها الأمريكيون وجوهًا عابسة أو ضاحكة في عيد الهالويين.

ستكون حادة وكم ستريق من دمائي.. ترى هل ينوي أن يتسلط على رقبتي ويهددني هو الآخر بالموت حبًا كل لحظة؟!

لا يهمني ما وصفتني به مها بأني مجنونة جنونًا رسميًا:

– ما تفعلينه الآن ليس إلا ردة فعل عشوائية لما حدث لكِ مع رامي.. صدقيني إنه من الجنون أن تبحثي عن الحزن وتلاحقيه هكذا.. ما أدراك أي معتوه ستقابلين الليلة؟!

كأني لم أسمع شيئًا..

لقد أخبرته أني سأكون ضمن مجموعة ترتدي زيًا عربيًا، وهذا سيسهل عليه مهمة إيجادي.. لقد اعتقد أنها فكرة مجنونة؛ كما اعتقد رامي من قبل!!.

كانت فعلاً مجنونة، وقادتنا إلى جنون أبعد!!..

ابتهجي يا حياة.. أنا اليوم سأصنع القرار وأنهي لعبتك الحقيرة معي، أنا اليوم كبرت وحزني كبر معي، مشاعري تمرست على الألم، ولن تجدي متعة البارحة في تمزيقي.

لقد اعتقدتُ أن الاحتفال هذه السنة لن يكون بتلك الزحمة المعهودة بسبب أحداث الحادي عشر من أيلول، لكني وجدت زحمة لم أتوقعها مطلقًا.. سعد أطرى على مظهري كثيرًا، وأعجبني لباس بقية المجموعة، فحتى المعارضون يبدو أنهم استسلموا لضغط سعد، وكنا

جميعنا نمثل رداءً شعبيًا وتراثيًا لمنطقة عربية ما، فبدونا أغرب وأجمل مجموعة على الإطلاق تلك الليلة.. وبمجرد أن غصنا في الزحمة بدأنا نسمع التعليقات من كل حدب وصوب؛ معظمها يمدح زينا، والبعض القليل يشتمنا ويدعونا إرهابين!!.

بدأت أقارن بين ذلك اليوم الذي كنت أبحث فيه عن رامي وبين اليوم الذي أبحث فيه عن سيف.. بين تلك اللهفة والخوف وبين هذه اللامبالاة التي أشعر بها الآن..

مها كانت ترمقني بنظرات قلقة بين الحين والحين..

أخذتني جانبًا وقالت لي:

– يارا.. باللهِ عليك، ماذا تفعلين بنفسك؟! لو رأيتِ وجهك الآن لما قلتِ أن هذا وجه فتاة ستقابل شخصًا من المفترض أن تكون معجبة به ومتلهفة لرؤيته.. يارا أنتِ حزينة.. دعي حزنك على رامي يأخذ وقته ومن ثم ستجدين نفسك تلقائيًا تتقبلين وجود آخر في حياتك...

كنتُ فعلاً حزينة.. مقهورة.. ذكرى تلك الليلة أفسدت عليَّ متعة هذا اليوم، تفاصيلها تمر على خيالي.. تلك اللهفة التي كنت أبحث بها عن رامي، وأتخيله يبحث عني بين تلك الجموع بنفس اللهفة والشوق.. لماذا أخدع نفسي وأتظاهر باللامبالاة؟! بلى أنا أبالي.. بلى أنا أكاد أموت حزنًا.. بلى أنا أموت الآن شوقًا لرامي.. كيف سمحت

لنفسي أن أشوه تاريخنا القصير، لَمَ أردت قتل تلك الخصوصية وأنا أعلم بأنه ما زال ذلك الألم الحاضر في وجداني؟!!

تمنيتُ البكاء بصوت عالٍ!!

ماذا تفعل يا رامي الآن؟!.. هل تذكرتَ اليوم؟!.. هل تمر على خيالك تفاصيل لقائنا الأول؟!.. هل أنت مثلي الآن متعب ممزق مهترئ الأركان؟.. هل تكاد تسقط من إعياء الشوق؟!

كنت أمشي بأقدام هوائية، وروح تطير.. لا أشعر بشيء؛ وكأنما حقنت نفسي بمادة مخدرة.. بلى.. لقد حقنت نفسي بمادة مخدرة.. حقنت نفسي حُبًّا، ومنذ ذلك اليوم وأنا في غيبوبة تامة لا أستيقظ إلاّ لمزيد من حقن الحب غير عابئة بكل تأثيراتها القاتلة..

كان سعد يحدثني وأنا أجيب، إجابات لا أدري إن كانت تحتوي على حروف أم كانت هي الأخرى هوائية!.

مرَّ الوقت.. لم يجدني أحدٌ، ولم أجد أحدًا..

بدأتُ أتنفس الصعداء.. لا أريد أن أجده.. من كنت أريده قد وجدته فلِمَ البحث المضني؟..

لكني وعدت سيف إن لم يجدني أو أجده بأن اتصل به الساعة الثانية عشرة على هاتفه المحمول.. كنت أتعمد إعادة تفاصيل ذلك اليوم بحذافيره حتى تختلط الذكريات ويتوه رامي في زحمتها!!..

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والربع عندما قرَّر الجميع أنهم جياع.. دخلنا مطعمًا يقدم مأكولاتٍ عربية.. كان سعد يجلس إلى جانبي من ناحية اليمين، ومها تجلس إلى جانبي من ناحية اليسار..

همس لي سعد:

– سأمر عليك بعد غد لنذهب إلى الجامعة.

ابتسمتُ له قائلة:

– بالتأكيد..

غمز لي وهو يبتسم:

– لا تناسبك الابتسامات المزيفة.. ما بالك اليوم ساهمة وكأنما تعيشين في عالم لوحدك، ما زال صاحبنا يتعب قلبك؟

في هذه المرة ضحكتُ بحق.. قلت له:

– صاحبنا يتآمر على قتلي كما يبدو..

فجأة شاركتنا مها الحديث قائلة:

– من هو هذا الذي يتآمر على قتلك؟ لا تصدقها يا سعد إنها تعيش أفلام مطاردات وتظن أنها شخصية دولية مهمة وهناك من يتآمر على قتلها.

ثم استطردت بسرعة:

– هل تريد أن تعرف من الذي يتآمر على قتلها؟..

obeikandl.com

رمقتها بنظرة تحذيرية، لكنها قالت:

– يارا.. يارا تتآمر على قتل يارا.. ما رأيك في هذا؟!

ضحكنا.. وهمس لي سعد:

– معها حق.. أنتِ تقتلين نفسك.. دعينا نتسلى الليلة وارمِ صاحبنا اليوم إلى الجحيم..

وجدتُ نفسي أقول في سري: "من غير شر".. اللهم احمه واحفظه ياربّ.

لوتْ مها شفتيها بامتعاض وهي تهمس في أذني:

– لقد بدا عليكِ الجزع وأكاد أسمع دعاءك السري بمنع الشر عنه..

ووجدتُ نفسي أغرق مرة أخرى في الضحك..

الساعة بدأت تقترب من الثانية عشرة عندما همستُ لمها بأني سأذهب إلى الحمام.. كان لابد أن أجلس لحظة مع نفسي قبل أن أقرر الاتصال بسيف أم لا!!.

تمشيتُ حتى أخر الشارع حيث يقل تمركز الناس عادة.. توقفت.. الجو بارد جدًا.. وأنا عليَّ أن أقرر التو...

اللعنة...

هذا الزي يجعل المارين يعلّقون بكثرة، وأنا أريد أن أفكّر بهدوء..

بدأتُ أشعر بحجم السخافة التي ارتكبتها في حق نفسي وحق هذا الإنسان المسكين الذي لا ذنب له.. لا بأس لا يزال الطريق إلكترونيًا ولم ندخل بعد إلى الطريق الترابية!..

سأتصل وأعتذر له عن سخافتي وأطلب منه أن ينساني لأني لست مستعدة بعد لخوض تجربة جديدة.. لقد بدا عليه العقل والحكمة في كل كلامه معي وسيتفهم موقفي هذا جيدًا..

أخرجتُ هاتفي المحمول وحظرت الرقم قبل أن أتصل..

ما أصعب هذا الموقف!.. لكن يجب أن أنتهي منه..

كان الهاتف يرن بلا مجيب.. تنهدتُ براحة.. أقفلت..

هكذا أقول له إني اتصلت ولم يجبني أحد، ومن ثم أشرح له الموقف وأُنهي هذه المهزلة...

وفجأة فزعت...

اكتشفتُ أني واقفة تمامًا في نفس المكان الذي وقفت فيه لأتصل برامي العام الذي مضى.. غمرني شعور حزين، وشعرت بشيء يقبض على صدري.. تدافعتْ دموع كثيرة وحققت رغبتي في البكاء، ولو أني لم أجرؤ على البكاء بصوت عالٍ.. كنت أتأمل الهاتف الذي اتصلت منه برامي، تحسسته بيدي.. وتذكرت يده التي رفضت أن تنهي السلام بسلام.. وعينيه اللتين كانتا تلتهمان تفاصيلي..

تذكرت عندما علق على عضلات جسمه.. ابتسمت وأنا أتذكر سؤالي عن التقويم الذي يضعه على أسنانه وإجابته التي أخجلتني.. ضحكته عندما اكتشفت بأن مها تركتني وذهبت.. صوته كان يقتحم وجداني ببطء قاتل ويمر على خيالي مرورًا موجعًا.. أنا أقف الآن على أعتاب شوق مميت، واقفة على أعتاب قرار يزيد من احتمال موتي.. ها أنا تعلمت لِمَ يكون الموت في مرحلة ما قرارًا مريحا للعشاق.. فلماذا لا يكون الخلاص الآن؟!

يا ربّ.. لا قدرة لي على تحمل كل هذا، دلني على الطريق وافتح لي بابًا يُفضي بي إلى راحة أزلية..

– هل كنتِ تبحثين عني!

هل كان هذا صوته، أم أني بدأت أعاني تخاريف الموت شوقًا؟

عاد الصوت من خلفي مجددًا يقول:

– هل كنتِ تتصلين بي يا آنسة؟!

سيف.. وجدني.. ولكن صوته!!..

– هل تبكين يا يارا...؟!

يارا.. هذه راؤه..

التفتُ...

ابتسم...

أمسكني قبل أن أسقط...

همس:

– هل كنتِ تبحثين عني؟

.....

– هل تظنين أني أكون على وجه الدنيا وأترك غيري يأخذك...

.....

– كنت أعلم أنك لن تبحثي عن سواي الليلة...

.....

– لا شيء اسمه مستحيل.. دعينا نحاول..

.....

– أنا أيضًا...

قد يكون حلمًا.. قد لا أفيق من ألم الغد.. قد أطرق باب الرحمة مجددًا فلا يفتح لي.. قد أعشق الموت، لِمَ لا؟!.. قد أموت فعلاً.. أين المشكلة؟!

... لا شيء عاد في حكم المهم...

حنان الوادعي

٢٠٠٢/٥/٢٦م

obeikandl.com

obeikandl.com

❖❖❖

obeikandl.com

المؤلفة في سطور

- حنان يحيي الوادعي.
- قاصة وروائية يمنية ومدافعة عن حقوق الإنسان.
- حاصلة على ماجستير في حقوق الإنسان، ٢٠٠٦م، جامعة لندن، بريطانيا.
- حاصلة على جائزة "المبدعين العرب" في ٢٠٠٤ – المركز الخامس عن رواية "أحزان إلكترونية" والتي تم تغيير اسمها مؤخرًا إلى "جائزة دبي الثقافية للإبداع" الصادرة عن دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع.

- القصص القصيرة التي نُشرت محليًا:

– حديث الجدران : مجلة الثقافية، ١٩٩٦

– الرسالة الأخيرة : صحيفة آدم وحواء، ١٩٩٩

– عشم إبليس في الجنة : صحيفة آدم وحواء، ١٩٩٩

– الأسود والأحمر : صحيفة آدم وحواء، ٢٠٠٠

– لم يعد مهمًا : صحيفة آدم وحواء، ٢٠٠٠

– مقدمة كتاب "كلمات بلا حروف" للكاتبة والصحفية ريا أحمد، ٢٠٠٢.
نُشرت مقدمة الكتاب في صحيفة الثقافية في العدد ١٧١

obeikandl.com

- القصص القصيرة التي نُشرت إقليميًا:

– اختبار الطاووس : مجلة الصدى، ٢٠٠٤

– هذه أنا : عمود في مجلة شهرزاد، ٢٠٠٤

– أنا وصديقتي : عمود في مجلة شهرزاد، ٢٠٠٤

– البعض يموت حيًّا في قلب ما : الصدى ٢٠٠٤

– للسرير طرف آخر : الصدى، ٢٠٠٤

– صدفة تبحث عنا : دبي الثقافية، ٢٠٠٤

– كلنا موصودون : دبي الثقافية، ٢٠٠٩

– أعيد نشر قصة للسرير طرف آخر ضمن قصص مختارة في كتاب "يوم كان السرد أنثى" للكاتبة ريا أحمد

- إلكترونيًا :

- "المرأة بين منهج الفاكهاني ومنهج المصطفي" : دراسة عن تعدد الزوجات، ٢٠٠٨، – نبأ نيوز– على الرابط التالي:

http://www.nabanews.net/2009/15270.html

كما أعيد نشرها في عدد من المواقع الإلكترونية وتم ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها على حلقات في صحيفة **Yemen Times**

- البريد الإلكتروني : **yhanany@gmail.com**

- موقع التواصل الاجتماعي :

http:// www.twitter.com/Hananalwadee

obeikandi.com